أريج من ورد

منال الضو

دار بسمة للنشر الإلكتروني

أريج من ود

اسم الكتاب: أريجٌ من وِدّ
اسم الكاتبة: منال الضو
نوع العمل: قصص
الرقم الدولي EBIN: 16-1-377-250510
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2025م / 1446هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية

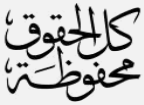

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

أريج من ود

قصص

منال الضو

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداءات

إلى كلِّ عبدٍ تمسَّك بالدِّين والالتزام،

أنارالله دربك برحيقِ الإيمان،

وبصبرٍيتلألأ إلى أن تلقى اللَّه بقلبٍ سليمٍ مطمئن، وبحُسنِ خاتمة.

إلى كلِّ فؤادٍ تسلَّح بالوفاء والتَّضحية في سبيل الثَّقافة،

التَّقاليد، الهُويَّة، والوطن، قد تكون الغُربة داخل الوطن إن لم تثبُت على المبادئِ والقيم.

إلى كلِّ روحٍ تبحث عن شبيهها، وعمَّن يهيمُ بأدقِّ تفاصيلها،

عسى أن يرزقك اللَّه إياها، فيغدقَ عليكم حبًا حلالًا ممزوجًا بالسَّكن والمودَّة.

إلى كلِّ من يجد في الكتابة ملاذًا لروحه،

أُهديك ما خطَّته أناملي علَّها تُسكِنُ أجيجَ ما بين ترائبك،

وتُنعشُ وجدانك بما خفي بين السُّطور.

إلى كلِّ من يحملُ في قلبه حلمًا بحريَّة فلسطين،

سيأتي يومٌ؛ ليسمع فيه العالم أجمع "تَمَّ تحريرُفلسطين"،

قريبًا وإن طالَ الأمد ستفيءُ لنا الأرضُ الزَّيتونةُ المُقدَّسة،

وسننعمُ بالسِّلام والطُّهرِ من دنسِ كلِّ احتلالٍ عاتٍ لم يكُن يومًا على هذه الأرض المُباركة.

وإلى بنفسج.. عسى أن تكون رُوحك مزهرةً بالحُب والعطاء،

أن يأتيك ربيعُ قلبك كمثل أرضٍ غدَت روضةً مُخضرَّة بعد أن كانت قاحلة،

عسى أن يأتيك العوضُ والجبرُعلى هيئةِ قطراتٍ كالنَّدى، وعناقاتٍ تفوحُ بمسك الدِّفء والجمال.

ملحوظات

-المجموعة القصصية تضم قصصًا متوسطةَ الحجم، وليست قصص قصيرة.

-وجود تشابه في الشخصيات، في بعض الأفكار، أو أحداث قصةٍ ما... فهو من محض الصدفة فقط، ولو تطابق الأمر في قصةٍ أخرى أو مع الواقع.

-6 قصص متنوعة هي حصيلة 3 سنوات، تم تعديل بعضها لتتناسب مع المجموعة ككلّ.

(1)

المِصباحُ في زُجاجَة

مقدمة

وتلك المشاعرُ الجميلة المُرهفة التي ننتظرها بشوقٍ شديد، نعفُّ قلوبنا ونطهِّر أرواحنا لنجعلها نقيَّةً طاهرة، تُبقي القُلوب مقيَّدةً بأواصر رُوحانيةً ثابتة، وكأنَّنا بين نورٍ لُؤلؤيٍ مُزدانٍ يجعلنا و اقعين في الحبِّ حدَّ الانغماس، فلا نشبعُ أبدًا.

إنَّها السَّاعة التَّاسعة صباحًا، وككلِّ يومٍ تستعد للدَّوام الجامعي كعادتها، كانت تعدِّل حجابها أمام المرآة، وبين الفينة والأخرى تترقَّب اتِّصال صديقتها؛ لتذهبا سويًا إلى الجامعة، أطلَّت برأسها، ووجدت رسالةً جديدةً ككلِّ يومٍ مضمونها:

«يا مريم.. أنسيت حقًا رفقتك الأولى بسبب مترين من القماش؟ هناك سهرةٌ بعد الدوام نتمنى حضورك فيها، فقد مرَّت أربعة أشهر منذ آخر تواجدٍ لك بيننا، الكلُّ يفتقدك، وحتَّى فرقة الموسيقى بذاك المقهى... سلام.»

تردَّدت في الإجابة وفي قلبها حنينٌ لشيءٍ ما، بل لوعة منغمسةٌ بقلبها؛ لتعود من جديد لتلك الفتاة البعيدة عن طريق الالتزام، تجاهلت الرسالة كعادتها مع أنَّها لا تعلم لما لم تحظر ذاك الرقم، أو تغير رقمها هي حتَّ هذه اللحظة.

عادت لترتب كتبها في حقيبتها فوضعت معها مسبحتها الإلكترونية، ثم خرجت من الغرفة بعدما أتمَّت ترتيب الكتب، وارتداء عباءتها البنيَّة الواسعة، خرجت لتصطدم بأخيها الذي كان على وشك أن يفتح باب البيت لكنَّه توقف قليلًا ليعدِّل بدلته الأنيقة كعادته من أجل العمل، ابتسمت في وجهه لتقول له:

-أرى أن العريس مستعدٌّ لملاقاة عروسه.. ستصل تسنيم بعد دقائق قليلة.

لاحت له بغمزةٍ وابتسامةٍ مشرقة؛ ليفاجئها باستغراب:

-أيُّ عريسٍ وأيُّ تسنيمٍ هذه؟ أجننت يا مريم؟!

أخفت تضايقها وردَّت عليه بهدوء مع استغرابها من حديثه المختلف عن صديقتها:

-أراك نسيت تسنيم يا عمر، تسنيم.. حبيبتك.. بل سؤالي هنا هو ألست تحبُّها؟

ضحك باستهزاء وهو يعدل ياقة الملابس فقال:

-أنا أحبُّ من؟ تسنيم.. صديقتك المعقَّدة، بل تلك التي تشبهك لكنَّها أسوأ منك بكثير؟

سألته باستغرابٍ وفي تضايقٍ واضح:

-كيف أمكنك الحديث عنها هكذا يا عمر؟ أنسيت ثلاث سنوات من حبِّك لها لتنعتها الآن بالمعقَّدة؟

-بالله يا مريم كفي عن تعكير مزاجي بهذا الصَّباح، هل هناك شخصٌ مثلي سيحب معقَّدةً كتلك، بملابسها السَّوداء المظلمة،

بخمارها الواسع، وحتى قوانينها وضوابطها في عدم لمسها أو الاقتراب منها... أيُّ حياةٍ هذه مع معقَّدةٍ مثلها؟ صرت أشعر بالضِّيق في وجودها، وقد اكتفيت منها بالفعل.

صرخت باسمه قائلة:

-عمر، انتبه لكلماتك!

قاطعها بهدوء وهو ما يزال يعدِّل في ثيابه بتأنٍ:

-مريم.. أنا مديرُ تنفيذي لأكبر شركةٍ سياحيَّةٍ بالبلاد، إن فكرت يومًا في الخروج معها لحفل عمل، أو لأخذها لمكان عملي سأصبح أضحوكةً بلا شك، هذا وإن قبلت هي الخروج أو الحديث معي أصلًا.. في كلِّ مرَّة تتحدَّث عن الضَّوابط والتَّجاوزات تخنقني بحديثها الفارغ عن هذا التَّخلف والتَّراهات.

ضحكت مريم بانكسارٍ لتقول له:

-إنه شرع ربنا يا عمر، ثم كلُّ وعودك لها كاذبة... ولا سيما الزواج، أليس كذلك؟

-هل تظنين أنني سأتزوج متخلِّفةً مثلها؟ لم تكن هكذا من قبل، وحتَّى تأثرك بها لم يزد الأمر سوى سوءً لتصبحي مثلها.

-ولم كنت تضيّع الوقت معها لهذه المدة إن لم تكن ستتزوجها؟ أنت تعرف أنها كانت في بداية الالتزام منذ معرفتك بها وما زالت كذلك، وحتى قرارها في ارتداء الخمار كان فجأة، ومنذ أشهرٍ قليلةٍ فقط.

-وماذا بعد؟

-منذ سنوات ظللت تلحُّ وتلحُّ علي أملًا في الحديث معها من أجل الزواج، لكن الأمر قد عاد مختلفًا خاصة عندما ارتدت الخمار.. أنت كنت تستغلها فحسب.

قهقه على كلامها خاصةً بعد جملتها الأخيرة فأجابها:

-مع الأسف يا مريم أنت لا تعرفين جيل اليوم، نحن الشَّباب يمكننا التَّحدث والدُّخول في مئات العلاقات مع البنات، لكن تلك التي تشارك الشَّاب حياته الزوجيَّة والعائلية تكون متفرّدةً عن الأخريات، وذات أدبٍ وأخلاق، فما الذي يضمن أنها لن تتحدَّث مع غيري، أو تتسكع معه بعد زواجي منها؟

سألته بغضب:

-أتعني أنَّ تسنيم غير متفرّدةً عن الأخريات اللَّواتي تعرفهن؟ أنَّها غير جديرةٍ بالثِّقة، بل وغير متخلِّقةٍ ومحترمة؟ أم أنَّك من تلك

الفئة التي حينما ستقرّر الزواج سيختار أحد بنات العائلة، أو سيدع والدته من تختار له أفضلهن؟

-نعم بالضَّبط، قد يمكن للشَّاب أن يستمرَّ في مهاتفة الفتيات أو التَّسكع معهن ولو بعد الزواج، لكن زوجته تظل الوحيدة بقلبه فالرِّجال ليسوا كمثل النِّساء... ثمَّ تحدثت مع أمي من أجل خطبة ريم ابنة خالي بالأسبوع القادم.

صمت عمر قليلًا وهو يتأمل حالتها المصدومة؛ ليردف ساخرًا:

-إنني مناسبٌ للزواج حاليًا، وأرى ريم أنسب لي من تلك المعقدَّة.

-عمر...

-هيا اذهبي يا مريم، وغيّري تلك الملابس البالية بأخرى عصرية كما اعتدت من قبل، صفِّفي شعرك وضعي بعض الزِّينة، فقد صرت كالعجوز في كلِّ شيءٍ حرفيًا خاصة في ملبسك وحديثك... مع السَّلامة إنَّني متأخرٌ بالفعل.

فتح الباب ليُصدم بالأخرى واقفةً أمامه بخمارها الأسود الفضفاض، بحقيبتها الصغيرة التي كانت تضمها إلى صدرها، وبملامحها المصدومة مع احمرار عينيها المغرورقتين بالدموع، سادت

ثوانٍ من الصَّمت، ومن أثر الصدمة أطلَّت مريم التي كانت وراء عمر وقالت:

-تسنيم..

أردف الآخر بامتعاض ووجه محتقن:

-منذ متى و أنت هنا؟

أجابته تسنيم وقد غالبت دموعها من الانهيار:

-أنا هنا منذ زمنٍ طويل... لكنَّني لا أستطيع القول بأنَّني المخطئة منذ البداية، أو على الأقل أنَّ صديقتي منذ أربع سنوات عرفت كيف تستغلني لصالح أخاها المحترم.

أخفضت الثانية رأسها بندم؛ لتردف تسنيم وقد تغيَّرت نبرة صوتها باهتزاز:

-للأسف الفتاة التي ترخص نفسها، والفتاة التي تتخلَّى عن تربيتها ودينها من أجل شخص هي بالفعل ليست صالحة أو حتَّى بارةٌ بوالديها، والإنسان الذي يتَّبع خطوات الشَّيطان، وطريق الشَّهوات بالفعل هو إنسانٌ بعيدٌ عن الصِّراط، والحمد لله الذي هداني و أنار لي طريق الحق.

كانت مريم ستنطق بشيءٍ ما فقاطعتها تسنيم قائلة:

-لا تقولي أيَّ شيءٍ يا مريم، للأسف أنا من سرت في هذا الطَّريق منذ البداية؛ صحبةٌ خاطئةٌ اعتقدت أنَّه يمكننا أن نمسك بيدي بعض للجنة، ثم علاقة محرمة منذ سنوات ورغم التزامي لم أنفصل عنها.. أعتذرعلى المجيء إلى هنا.

نزلت في درج العمارة مسرعةً حيث منزل مريم وعمر بالطَّابق الثَّالث، ففاجئها عمر بشدِّ ذراعها قائلًا برجاء:

-اسمعيني يا تسنيم، لقد فهمت الأمر بشكل خاطئ.. أرجوك لا تذهبي إنَّني أحبُّك، أقسم لك...

انتفضت منه بقوَّة لتزيل يده من ذراعها، وصرخت في وجهه قائلة:

-ابتعد عني.. ليس بيني وبينك أيُّ صلةٍ أو قرابة لذا لا تلمسني.

-فقط.. دعيني أوضِّح لك سوء الفهم، أنا...

قاطعته ووجها زاد احمرارًا من الانفعال:

-إنسَ كلَّ شيءٍ، فما كان بيننا سوى نزوةٌ عابرة، إنسَ بأنَّني كنت واقعةً في شباكك كالبلهاء، وإنسَ أنت وأختك تسنيمًا قد

عرفتموها وتلاعبتم بها، جزاكم الله خيرًا على أفعالكم وخيركم هذا، فدعني أذهب ولا تعترض طريقي مرَّة أخرى.

ذهبت مسرعةً، وفي كلِّ خطوةٍ كانت تحاول التَّماسك بكلِّ ما فيها من شتاتٍ واهتزاز، كان الاختناق مجلجلًا بصدرها بينما أنفاسها مضطربة، وكأنَّها في سباقٍ سريع، فبين أحاسيس مبعثرة، وأفكار مهشَّمة وجدت نفسها قد ابتعدت فعلًا عن بيت عمر ومريم، مدَّت الخطوات أكثر بقليل عائدة إلى المنزل ناحية حديقته الصَّغيرة، فما إن دلفتها لمحت شجرة الزَّيتون الوارفة، ووضعت حقيبتها جانبًا لتجلس هي الأخرى على الأرض.

كانت أنفاسها غير منتظمةٍ لدرجة أنها قد شعرت بالفعل أن قلبها ينبض بعنفٍ، وبوتيرةٍ غير اعتيادية، وضعت يدها اليمنى عليه لتنزلق الدموع رويدًا رويدًا، بحرارةٍ وسكونٍ من شرِّ خذلان، ألم، كره، وندم... لعلَّها أحاسيسٌ مظلمةٌ سحبت عقلها المهشَّم وقلبها المتعب؛ لترى الحياة مظلمةً وتعاكسها بتشاؤم، ظلَّت في مكانها ودموعها تبلِّل وجنتيها المحمرَّة؛ لتشعر برذاذ المطر ونسيمٍ باردٍ يمسح دموعها برفق، كانت القطيرات قد تشكَّلت بالفعل؛ لتنبعث روائح التُّربة العطرة فتذكِّرها بأصلها الآدمي من طين.

تأمَّلت حفيف تلك الشَّجرة المباركة فوقها، والجو ما زال ممطرًا نسبيًا، لملمت كفوفها إلى أحضانها وهي تستشعر برودة الجو، وذاك المطر الذي كان يغسل روحها، وكأنَّها كانت إشارة ربانية بأن تغتسل من جديد ذاتها المرهقة، روحها المتعبة، وفؤادها الرَّقيق ليعود طاهرًا من الذنب، وخاليًا من الشَّوائب، زادت وتيرة البكاء الصَّامت، لكن هطول المطر الذي بدأ في التَّكاثف قد خفَّف عنها وطأة النَّار، دنس الخطيئة، ورماد الاحتراق.

دخلت إلى البيت بعد أن بلَّلتها أمطار الرَّحمة، قطيراتٌ كالبَرَد كانت تصبُّ في قلبها ببطءٍ شديدٍ، وكأنَّها تغسل ما به من دنسٍ وسواد علَّها تخفف عنها وطأة الألم، غيَّرت ملابسها بسرعةٍ لخمارٍ آخر بعد أن توضَّأت، ثمَّ حملت مصحفها وذهبت لمعلمة القرآن بمسجد الحي المجاور.

كانت تخطو بحذرٍ وهي تجتنب تلك الحفر المليئة بالماء أو المليئة بالطِّين، وفي كلِّ تقدُّمٍ تتذكر ما مضى وما كانت عليه قبل أن تلتزم وتختمر، كانت تشعر بالاختناق، وفي الآن ذاته برغبةٍ عميقةٍ في الفضفضة، دلفت باب المسجد، وكان حينئذٍ أذان الظهر.

أدَّت الفريضة، ثم جلست في مكانها بهدوءٍ لتراجع وردها ريثما تأتي معلمتها، مرَّت ساعتين، وبدأ جمع البنات بعمر الخمس والعشر

سنوات بالقدوم والجلوس في المكان المخصَّص للحفظ، بينما كانت تسنيم قابعةً في أحد الزَّوايا بعيدًا عن الأنظار، لم تكن مركِّزة مع الحفظ بقدر تركيزها فيما حدث صباحًا، لم تبالِ بالجوع الذي تشعر به، ولم تخبر أمَّها بتاتًا عمَّا حصل رغم سؤالها عن حالتها خاصة عند رؤيتها لملابسها المبلَّلة، وعودتها سريعًا منذ خروجها.

مضت لحظاتٌ؛ لتدخل المسجد امرأةٌ منتقبةٌ في منتصف الأربعينات، أزالت النقاب وتقدمت ببشاشةٍ ناحية الطالبات الجالسات بانتظامٍ، وهن ينتظرن دورهن من أجل الاستظهار، بينما ظلَّت تسنيم في مكانها لا تدري ما حولها إلى أن مضت ساعة، فتقدَّمت المعلِّمة ألقت المعلمة السَّلام؛ لتنتبه لها تسنيم، جلست أمامها ثم أذنت لها بالاستظهار رغم أنَّه ليس موعد قدومها؛ بدأت في استظهار سورة النور وما إن وصلت إلى قوله تعالى: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** حتَّى توقفت، وهي بالكاد قد وصلت إلى هذه الآية بعد انقباض صدرها وارتعاشة يديها، كانت بالفعل تتجاهل نظرات معلمتها، وتشدُّ على ثوبها بيدٍ متعرِّقة، وحقيقة الأمر أنَّها كانت أقرب لها من والدتها في النُّصح، وفي فهمها أكثر.

توقَّفت برهةً عن القراءة، وكانت تنتظر عتاب المعلمة على كمية أخطائها في التَّجويد وحتَّى في الحفظ، بل وهذه أول مرَّة تخطئ فيها ولا تتمُّ القراءة، وضعت المعلمة يدها على كتف تسنيم وقالت:

-ما بك يا صغيرتي؟ ولما حال قلبك هكذا؟

انعقدت الكلمات في لسان تسنيم، فطبطبت عليها المعلمة مرَّة أخرى وقالت:

-أخبريني، ما الذي حدث؟

رفعت رأسها بصعوبة وقالت:

-فقط.. بعض المشاكل ببيتنا.

قهقهت بلطفٍ لتجيبها سريعا:

-أيُّ مشاكلٍ هذه يا تسنيم؟ وكأنَّني لا أعرف والديك الطيبين، وحياتهما الهادئة خصوصًا بوجودك معهما دون إخوة... أخبريني، من جرح قلبك لهذه الدرجة يا بُنيَّتي؟

انهالت الدُّموع مرَّة أخرى، وقالت بصوتٍ مختنق:

-ربُّنا يكرهني يا معلمتي، خائفةٌ وبشدَّة من أن يطردني من رحمته، أن يعاقبني على ذنوبي الكثيرة وألَّا يسامحني ويغفرلي.

شدَّت المعلمة على يدي تسنيم المرتجفة لتجيبها:

-كلَّا يا بنيتي، حاشا ولله أن يطرد عبدًا من رحمته وألَّا يغفر له ذنبه، كنت أعلم أنه ليس هناك مشكلة بالبيت فلو كانت كذلك لما وجدتك على هذا الحال.

تأملت مليًا تسنيم وحالتها المتعبة، فقد بدأت أعراض إصابتها بنزلة البرد في الظهور، بدءً من احمرار أنفها وعطاسها، مدَّت المعلمة يدها لتمسح دموعها وباليد الأخرى ظلت متمسكة بيديها الباردتين، فأردفت بنبرةٍ حنون:

-اسمعي يا بنيَّتي، مهما كان ذنبك، وكيفما كان لا تنظري لنفسك على أنَّك سيِّئةٌ أمام رحمة ربِّنا سبحانه، فقد كتب علينا الذَّنب؛ لنقابله بالتَّوبة النَّصوح، لو كان ربنا يكرهك، وحاشا لله أن يكره عبدًا لجعلك غارقةً في الذنب أكثر، لجعلك بين تيهٍ ووجعٍ ينخر قلبك، ولما حُبَّك لله ورحمته بفؤادك لما كنت هنا لتغسليه، وروحك من ذنوبك بالصَّلاة ونور القرآن، ولما شعرت بالذَّنب وتأنيب الضَّمير..

-معلِّمتي!

-تسنيم.. إنَّه جلَّ جلاله التَّواب الرَّحيم، عليك أن تفرحي لمقابلة الله بثوبٍ جديدٍ معافاةً من الذنب، بقلبٍ أطهر من قبل...

تسلَّحي وتشبَّثي بصلاتك، صلِّ ركعتي توبة، وامسحي على قلبك بالدُّعاء.

كان حديثها قد تغلغل في قلبها المفطور؛ لتجد نفسها في حضن معلمتها؛ الحضنُ الثَّالث والأحن بعد حضن والديها لكنَّه حضنٌ من نوعٍ آخر، حضنٌ يُطبطب على القلب والرَّوح بجرعةٍ إيمانيةٍ تستفيق بها من غفلتها، ومن طريقٍ بعيدٍ عن النُّور.

بعدما هدأت تسنيم من روعها، أضافت معلمتها كلماتها الأخيرة بحبٍ وهي لا تزال تحضن تسنيم:

-لم تُكملي أحبَّ آيةٍ إلى قلبك يا تسنيم، لم تتدبَّري معنى {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ}، المقصود هنا هو هداية قلب المؤمن، وذاك النُّور الذي في فؤاده كالمشكاة؛ فشبَّه الله سبحانه وتعالى قلب المؤمن وما هو مفطورٌ عليه من الهدى، وما يتلقَّاه من القرآن المطابق لما هو مفطورٌ عليه، شبَّه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزُّجاج الشَّفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشَّرع بالزيت الجيد الصَّافي، المشرق، والمعتدل والذي لا كدَر فيه ولا انحراف.

ابتسمت تسنيم ولم تنبس بحرفٍ آخر، فقط كفايتها كانت عند ارتوائها من حضن معلمتها وكلامها المفعم بالحبِّ والإيمان.

عادت تسنيم إلى بيتها وهي تحدث نفسها:

-كيف أمكنني أن أكون حافظةً لكلام الله ومختمرَّة أن أستمر في علاقةٍ غيرشرعية؟ كيف أمكنني أن أخون ثقة والداي وتربيتهما لي بخروجي مع شابٍّ أجنبي، وفي الأخيرير اني معقَّدةً بسبب ملابسي الفضفاضة والمحتشمة؟ أعرف بأنَّ لكلِّ ابتلاءٍ حكمة وآخره بلسم جبر، لكن ما الحكمة في كلِّ ما حدث لي؟ كنت في طريقٍ خاطئٍ مزيَّنٍ بالشَّهوات بملابسي الضيِّقة، بتبرُّجي وزينتي، بعلاقتي مع عمر، وبابتعادي عن الله رغم حفظي للقرآن منذ سنوات ثم التَّوقف، قد تُبتُ وعدت للذَّنب من جديدٍ باستمراري في علاقةٍ مُحرَّمة...

تنهَّدت بعمق عندما وجدت نفسها قد وصلت إلى باب بيتها لتردف:

-في الحالتين سواء صبرت أو لا، قد تألَّم قلبي من شدَّة النَّدم وحرقة الذَّنب الذي مضى، ليس بإمكاني العودة وتغييره لكن أملي في التَّوبة كبيرٌ جدًا، ويقيني علَّه يكون قويًا بالله، فاللَّهم اهدني وثبِّتني على الحق.. اللَّهم اكفني شرَّالخلق، وتُب عليَّ إنَّك أنت التَّواب الرَّحيم، يا رب برحمتك وحكمتك وعظمتك اجبرقلبي جبرًا يليق به، فلا أظن أن الخيريأتي إلا بك.

دلفت إلى البيت واستقبلتها والدتها بحضنٍ دافئ، وكأنَّها تعلم ما دار بينها وبين معلِّمتها قبل ساعة، توجهت لغرفتها بتثاقلٍ، غيَّرت

ملابسها ووجدت والدتها تقدِّم لها بعض الأكل، لم تكن لها شهية؛ لذا اكتفت بالقليل، عادت إلى غرفتها وتمدَّدت على سريرها، فتحت هاتفها لتجد عشر مكالمات من مريم، اثنتين من عمر، وكثيرٌ من رسائله، تجاهلت كلَّ ذلك؛ لتقوم بحظر رقمهما معًا بعدما حذفت كلَّ الرَّسائل القديمة؛ تلك الرَّسائل التي دامت لمدة ثلاث سنواتٍ في علاقةٍ محرَّمة، رسائلٌ ظلَّت تُخفيها إلى أن عانت مُهجتها من روعة ذنب الخوض في علاقةٍ غير شرعية.

تأمَّلت سقف غرفتها الصَّغيرة؛ لتحرِّك أناملها في تطبيق القرآن بصوت الشَّيخ هزاع البلوشي، بدأت القراءة في سورة يوسف، وهي أحبُّ السُّور لقلبها، لربَّما تجبر خاطرها كما العادة بقصَّة النَّبي يوسف عليه السلام.

كانت تستمع لكلِّ آية بتأنٍ وتدبُّر، بينما كان وقعها على قلبها الرَّقيق، فبعد انتهاء تلاوة السُّورة قالت بصوتٍ هامس:

-يا الله، يا الله، أبعد عنِّي كلَّ ما يدمع عيني، و أبعد عني الضِّيق الذي يخفي ابتسامتي، اللَّهم ارح قلبي وعوِّضني عن كلِّ أمرٍ أحزنني.. ربي تُب عليَّ إنَّك أنت التَّواب الرَّحيم.

عادت بتسنيم الذَّاكرة لحياة قد ودعتها.. تذكَّرت كيف كانت حياتها قبل الالتزام، فرغم عيشها وسط أسرة عاديَّة تطبِّق تعاليم

الدِّين كأيَّ فردٍ مسلم ببلدٍ عربي، لم تكن هي بذاك القدر من تشبُّثها بالدِّين؛ لم تكن تعلم أنَّ ملابسها الضَّيِّقة، زينتها الصَّاخبة، علاقتها بعمر، وتحرُّرها بسبب رفقة السُّوء وحتَّى ترعرعها كفتاة وحيدة وسط أسرة ميسَّرة أنَّه السَّبيل المظلم والبعيد عن الحق، كانت ترتدي وفق ما تحب دون تدخُّل والدها المشغول بالعمل أو حتَّى والدتها، فقد كان لابنتهما كامل الحرِّيَّة في التَّصرُّف باعتبارها فتاة شابَّة قد تجاوزت عقدها الثَّاني بثلاث سنوات.

كانت نقلتها وتغيُّرها الجذري منذ ولوجها إلى المرحلة الجامعية؛ عالمٌ جديدٌ ومختلفٌ بشكلٍ كبير عما كانت عليه في سنوات الإعدادية والثانوية، بينما تخصُّص علوم الاقتصاد كان يجذب مختلف الشَّباب من كلِّ طبقات البلاد، ولا سيما تلك الفئة الغنية التي تخوض حياة الرَّفاهية بالنُّزهات الجماعية المختلطة، العلاقات الغرامية، والسَّهرات الليلية.

لم تكن تسنيم حينئذ على وعيٍ تامٍ بذاك العالم الجديد الذي تأثرت به بشكلٍ سلبي، أو حتى على علمٍ بأنَّ حالتها تلك هي حالةُ تبرُّجٍ وفتنة لا غير، وكأنَّها مسلمةٌ باللِّسان فقط.

قبل أشهر كانت كعادتها مستلقيةً في فراشها خلال منتصف اللَّيل تتبادل رسائل الحبِّ والغرام مع عمر، مرَّت ساعات وساعات إلى

إن أنهت المحادثة معه، دخلت إلى صفحتها الشَّخصية على موقعٍ من مواقع التَّواصل الاجتماعي؛ لتجد أوَّل منشورٍ أمامها فيه هذه الكلمات التالية:

«لما ترتدين ما يغضب ربَّك ثمَّ تقولين الدِّين في القلب؟ وكأنَّك أمام ورقة امتحانٍ تعيدينها إلى المراقب بيضاء بدعوى أنَّ العلم في الرَّأس، فهل يُعقل هذا؟!

إنَّ صلاح القلوب وما وفي الصُّدور آثارها الخارجية تكون جليةً وصادقةً أكثر من القول باللِّسان فقط.

تقول إحداهن: كنت في كلِّ مرَّةٍ أرتدي فيها حجابي أنظر لنفسي في المرآة.. فرغم محاولتي لارتداء الواسع الفضفاض الطويل، وجعل الحجاب طويلًا أجد نفسي أحيانًا أخفي يدي بأكمامي، أو أهرع لإخفاء شعرةٍ تسلَّلت من تحت حجابي، أو أشدَّ بثيابي؛ كي لا تلتصق بي مع هبوب الرِّياح، إنَّها حقًا معاناة ومع ذلك أجد حجابي غريبًا عن ديني، فهو ليس كما ينبغي...

أحاول جاهدةً إصلاح نفسي بجعل ما أرتديه سترًا للجوارح وليس للبدن فقط، وأن يكون فيه تقرُّبًا وطاعةً لله و ابتغاء مرضاته...

نعم، الحجاب حياة، ستر، نوروحياء ومع ذلك أتعجَّب ممَّن لا يرتدينه أو يرتدينه ولا يعرفن بقيمته، ولا بذلك الشُّعور بأن تكوني مستورة، عفيفةً وحيِيَّةً بثوبٍ وحجابٍ واسعٍ يرضي الله..

فاللَّهم اهدنا وثبِّتنا على الحجاب، واسترنا سترًا جميلًا، واجعل تحت السَّتر ما يرضيك عنَّا قبل أن نُدثَّر بدون رغبةٍ منَّا بكفنٍ طويلٍ من خمسة أثواب...

فهذا حال المحجبة، وما حالك أنت بتبرُّجك وزينتك؟»

ذاك الشعور لم تدرك للآن كنهه، فقد كان مزيجًا من الصَّدمة والألم والخجل، كأنَّها صفعةٌ وُجِّهت لها لتستفيق من غبار الأوهام والديجور التي هي فيه، فمع كلِّ كلمةٍ قرأتها كان وقعها كبيرًا في فؤادها، لربَّما قد حرك فيها شيئًا من تأنيب الضَّمير ومحاسبة النَّفس، لم تشعر بدموعها وهي تنسدل بغزارةٍ وبصمتٍ وهي تتمعَّن تلك السُّطور، تلك الإشارة الرَّبانية بالهداية بعد سنينٍ من المعاصي والذُّنوب، تفقَّدت خزانة ملابسها؛ لتشعر بالخجل من نفسها للمرَّة الثانَّية، فساتينٌ قصيرة، سراويلٌ وقمصانٌ ضيِّقة، ألوانٌ صاخبة، علبٌ ومنتجات غاليةٌ من مساحيق التَّجميل، والحلي مصفوفةٌ في أحد الرُّفوف العليا للخزانة...

عادت إلى سريرها وبدأت تبحث بتلهفٍ في صفحة كاتبة المنشور، ضغطت على زر المتابعة ثم وجدت مجموعةً من المنشورات الدِّينية عن الصَّلاة، الحجاب، حفظ القرآن، التَّوبة، قواعد في التجويد، عِبرٌ من السِّيرة النَّبوية، بعض أحكام الشَّريعة، الحبُّ الحلال، والصُّحبة الصَّالحة... في كلِّ منشورٍ كانت تتمعَّن مفرداته بتأنٍ إلى أن وجدت آخر منشورٍ نُشرَ قبل أسبوعين لها:

«والحمد لله، فالابتلاءُ هو بلسمٌ في القلب..

دعواتكم لي بالشِّفاء.»

ابتسمت تسنيم في حزنٍ؛ لتسمع أذان الفجر، ذهبت دون إرادةٍ منها فقد كان الفؤاد حينئذ المتحكِّم بها، واتجهت إلى الحمام لتتوضأ، صلَّت ركعتي الفجر وفي السَّجدتين كانت تدعو ربَّها بالهداية ولصاحبة ذلك الحساب بالشفاء، مرَّت بضع دقائق فلفت انتباهها إشعارٌ أضاءَ هاتفها؛ لتفتحه وتجد هذه الرِّسالة:

«إنَّا لله وإنا إليه راجعون، صاحبة هذا الحساب توفيت بعد صراعٍ مع مرض السَّرطان، وكان آخر كلامها بأن تنشروا منشوراتها لأخواتكن، صديقاتكم، وكلَّ فتاةٍ لعلَّها تهتدي للطَّريق الأقوم؛ جعله الله لها صدقةً جاريةً على روحها الطيِّبة، وادعوا لها بالرَّحمة والمغفرة جزاكم الله خيرًا.»

لم تشعر بارتعاشةِ يدها التي أسقطت الهاتف ولا دموعها التي عاودت النُّزول بغزارة، حملته بسرعةٍ وفتحت خانة التَّعليقات لتجد آلاف التَّعليقات والدعوات لها بالرحمة والمغفرة خلال تلك الدَّقائق المعدودة، لكن العجيب هو وجود العديد من التعليقات التي أشارت بأنَّ صاحبة الحساب كانت سببًا في هدايتها، توبتها، حفظها القرآن، أو ارتدائها الحجاب من خلال منشوراتها الدِّينية.

عادت تسنيم للتفكير في حالها، فملَك الموت زائرٌ ولا بُدَّ منه، لا منجا ولا مفر منه يأتي على حين غفلة دون موعد أو استئذان، وقد عزمت في اللَّحظة عينها على تغيير حياتها وشدِّ طريق الالتزام مع مريم.

مرَّت الأيام والأشهر لتتجاوز سنةً من تغيُّر تسنيم، كانت تذهب إلى الجامعة؛ لتجد مريم برفقة صحبةٍ جديدةٍ بعدما خلعت خمارها منذ تلك الحادثة بأسبوع؛ لتعود إلى حياة التَّبرُّج من جديد، في كلِّ مرَّةٍ كانت تتجاهل تسنيم ولا تردُّ السَّلام حتَّى، ومع ذلك قلب هذه الأخيرة لا ينفكُّ عن الدُّعاء لها بالهداية والصَّلاح...

كانت سنتها الأخيرة؛ لتتخرج منها بتفوُّق، نالت المرتبة الأولى على صعيد الجامعة وحين موعد الحفل قد نالت الانتقادات، السخرية، والكلمات المسيئة بسبب حقد البعض وغيرتهم التي كانت منذ ارتدائها للخمار، قابلت كلَّ الإساءة بصدرٍ رحبٍ متذكِّرة ابتلاء النبي صلى الله

عليه وسلم مع قومه بسبب أذاهم، سخريتهم، ونعتهم للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بالسَّاحر والشَّاعر والمجنون، وهذا ما زادها سوى إصرارًا وتشبُّثًا بدينها وبالخمار أكثر، لاحظ والداها ذاك التغيُّر الجذري، وقرب ابنتهما أكثر من الله؛ ليعملا معًا على تشجيعها ومساندتها.

مرَّت أيامٌ لم تكن روتينيةً بالنسبة لها، تذهب إلى أحد المعاهد لدراسة علوم الشَّريعة صباحًا ثم تذهب إلى المسجد مساءً؛ لتستكمل الحفظ بشكلٍ مكثَّف، عاد قلبها رقيقًا كفؤاد الطَّير بارتواءٍ ربيعي من القرآن، وقد أكملت حفظ أربعين حزبًا، كانت بالمسجد مع معلمتها تشرح لها بعض قواعد التجويد مع القراءات، فذكرت لها المعلمة عن مسابقةٍ خاصَّةٍ بالتَّجويد والحفظ بعد صلاة التراويح من أواخر شهر رمضان المبارك، رشَّحتها مع فتياتٍ أخرى للمشاركة، لكن تسنيم كانت متردِّدةً حينما علمت بأنَّ المشاركة من فئتي الذُّكور والإناث، كما أن لجان التَّحكيم من كبار العلماء والشُّيوخ بالبلد، كان إلحاح المعلِّمة وتشجيعها لها قد دبَّ فيها الحماس للمشاركة في مسابقةٍ أكبر من تلك المسابقات التي كانت تعدُّها معلمتها، فقد اعتادت ورفيقاتها في المسجد على تلك المشاركات والمسابقات مع بعض الجوائز الصَّغيرة كتشجيعٍ منها لهن.

تبقى لانتهاء شهر رمضان أربعة أيام وبالضَّبط يوم على بدء المسابقة، راجعت في تلك الليلة وردها المعتاد وقلبها مطمئنٌ ومتفائلٌ بهذه البادرة الطيّبة في تثبيت الحفظ أكثر.

انقضى يومها كالعادة في الصِّيام وذهابها للمعهد صباحًا ثم عادت؛ لتساعد والدتها في أشغال البيت، أوصلها والدها إلى أحد المساجد الكبيرة بوسط المدينة أدت صلاة العشاء والتَّراويح ثم ما أن انتهى الإمام من الصَّلاة حتى بدأ يدعو بصوتٍ جوهري شدَّها من أوَّل لحظةٍ سمعته، وفي ذات الثَّانية هزَّ شغاف فؤادها وأوصالها دعوته الأخيرة قائلًا:

«اللَّهم قلبها حتَّى يطمئنَّ قلبي.»

لتنتفض تلك القطعة القابعة بأيسرِ صدرها إثر تردُّد صوتها الخافت بين صوت المصلين بكلمة **"آمين"**.

جلست بين النِّساء في استعدادٍ للمسابقة ثم نُودي عليهن لأحد القاعات الخاصَّة بطلبة القرآن، تقدَّمت بخجلٍ وراء بعض البنات ثم جلست وهي تحتضنُ مصحفها، كان بين صفوف البنات والشَّباب ستارٌ شفَّاف وفي أحد الجوانب حلقةٌ من خمسةٍ من الحكام يجلسون بهيبةٍ ووقارٍ في انتظار البدء.

تقدَّم أحد الحكَّام لتلاوة بعض الآيات من أجل الافتتاح ثم بدأت المسابقة بالنَّداء على المتسابقين والمتسابقات؛ كانت تسنيم متوترةً بعض الشيء، لكنَّها كانت تُسكن نفسها ببعض الأدعية لتيسير الأمور، نودي عليها باسمها:

-تسنيم الصَّباح.

تقدَّمت بخطواتٍ بطيئةٍ نحو لجنة التَّحكيم، ثم جلست في مقعدٍ كان أمام لجنة التحكيم، ألقت عليهم السَّلام بصوتٍ منخفضٍ وهي مطأطئة الرأس من شدَّة الحياء، فهمهم أحد الحكام:

-إذن تسنيم الصَّباح.. بسم الله الرحمن الرحيم ابدئي من قوله تعالى {وَلا تَيأَسوا مِن رَوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيأَسُ مِن رَوحِ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الكافِرونَ}.

بدأت بالتلاوة بصوتٍ عذبٍ رقيقٍ وهي تراعي أحكام التَّجويد إلى أن أوقفها أحد اللِّجان:

-حسبُك يا ابنتي.

توقفت عن التَّرتيل؛ ليقول لها أن تتلو من سورة النَّجم، ثم مرَّة ثانيةً من خواتيم سورة إبراهيم؛ ليوقفها مبتسمًا وقائلًا بنبرةٍ حنون:

-بارك الله فيك يا ابنتي.

ثم وجه نظره لأحد الحكام والذي كان جالسًا بعيدًا عنه قليلًا:

-دورك يا يوسف.

-بإذن الله يا أستاذي.

ما إن سمعت اسم يوسف، ثم ذاك الصَّوت حتى سرت رعشةٌ في أوصالها، وبدأت دقَّات قلبها في تصاعدٍ؛ لتخترقه كلمات المُدعى يوسف:

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته آنسة تسنيم، هل يمكنك تلاوة قوله تعالى {وَآخَرونَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم خَلَطوا عَمَلًا صالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتوبَ عَلَيهِم إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَحيمٌ}؟

نفس الصَّوت عند الدُّعاء، خاصَّةً عندما رتَّل هذه الآية بصوتٍ مُتقنٍ وحسنٍ؛ ليجعل نبضات فؤادها في اضطراب، بينما احمرار وجهها الأبيض لم تستطع به أن ترفع رأسها؛ لتستكشف ملامح يوسف، لاحظ الكلُّ صمتها واحمرار وجهها ثم يديها اللَّتان تشدَّان على خمارها الأسود بتوتر؛ ليقول أحد لجان التَّحكيم:

-لا عليك يا ابنتي.. اتلِ من بداية العشر الأواخر من سورة آل عمران.

هدأت من أنفاسها المضطربة؛ لتبدأ التلاوة من جديد بأواخر سورة آل عمران، وأكملت بسورة النساء فتوقَّفت عندما سمعت:

-حسبُك..

أُردف صوتٌ آخرٌ أعاد لها الانتفاض من جديد:

-اقرئي من قوله تعالى {اللَّهُ نورُ السَّماواتِ وَالأَرضِ}.

كانت تسنيم تخفي توترها وهي بدورها لا تعرف السبب، لكن ما إن سمعت تلك الآية حتى تساقطت عبرةٌ من عيونها؛ لتتوالى بعدها عبراتٌ أخرى؛ ليقول الشيخ ليوسف ممازحًا:

-مهلا يا يوسف.. أراك تخيفها بسرعة حديثك، فما معنى أن تجيب على أسئلتنا وحين دورك تفزعها بمفاجئتك في سؤالها؟

قهقه يوسف بلطافةٍ قائلًا:

-والله يا أستاذي لأنِّي أتحدث بهدوء، ثمَّ ما العيب في أسئلتي المفاجئة؟

-لا عليك يا ابنتي.

بدأ في تسجيل المعلومات كتابيا وهو يقول:

-تسنيم الصَّباح.. فئة التجويد والحفظ.. حافظة قرآن من مسجد أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه.. متى أنهيت حفظ الكتاب؟

قالت بتوتر:

-لم أختم الحفظ بعد.

تعجب الحاضرون ليسألها مرَّة أخرى:

-كم لديك من الحفظ؟

-أربعون حزبًا.

سألها أحد لجنة التحكيم والذي كان مكلَّفًا بتدوين الملاحظات:

-كيف أجبت عن سورٍ ليست ضمن الحزب الثلاثين؟ الاستظهار خالٍ من الأخطاء كما أن التِّلاوة متقنة، القواعد مضبوطة بإحكامٍ، ومخارج الحروف سليمة.. لكن كيف تمَّ تسجيلك ضمن فئة الستين حزبًا بين التلاوة والحفظ؟

أجابت بنبرةٍ شبه باكيةٍ، ودموعها تنساب بمهلٍ على وجنتيها المحمرَّة:

-لا أعلم.. والله لا أعلم عن هذا.

ظلت صامتة ليسألها يوسف:

-آنسة تسنيم هل والدك معك؟

لم تجب عن سؤاله؛ لتسمح لها لجنة التحكيم بالذهاب، لم تعد إلى مكانها بين البنات في انتظار الإعلان عن تاريخ تقديم النَّتائج وإنَّما خرجت مسرعةً؛ لتجد والدها في انتظارها فاحتضنته باكية، طبطب عليها برفق؛ ليمسح دموعها فقد ظنَّ أنَّها لم تفز في المسابقة لهذا لم يذكر لها أمر المسابقة وكيف كان أداؤها، فبعدما عادت إلى البيت ذهبت مباشرةً إلى غرفتها، استلقت في الفراش وغطَّت في نوم عميق.

مرَّ يومين على المسابقة، وكانت الاستعدادات لعيد الفطر على قدمٍ وساقٍ مع انشراح الصُّدور وبهجة القلوب، كانت تسنيم تعدُّ مائدة الإفطار لآخر يومٍ من رمضان؛ لتحتضنها والدتها قائلة:

-تسنيم.. بعد الصَّلاة ستأتي أسرة شابّ طيب من أجل الرؤية الشرعية، أريدك أن تستعدي.

أومأت لها بلطف ثم دخلت إلى غرفتها بعدما شعرت بتراقص قلبها من دون سبب، توضَّأت وصلَّت ركعتين قبل أذان المغرب فشعرت ببعض الرَّاحة.

بعدما انتهت من صلاة العشاء كانت قد رتَّبت البيت وأعدت اللَّوازم من أجل استقبال الضيوف، وبعد ساعةٍ من حضورهم كان والدي تسنيم مع الضيوف في البهو؛ ليدلفوا الصالون بعد ترحيب حار بهم.

نادت والدة تسنيم على ابنتها فدخلت عليهم بخمارٍ أزرق أضفى على وجهها نورًا وإشراقًا خاصَّةً مع عيونها البنية، تقدمت بخجلٍ وألقت السلام على رجل كبير في العمر وكان والد الشاب، وامرأةٍ منقبة لم تكشف عن وجهها، بينما كان الشاب يجلس مبتسمًا في انتظار أن ترفع تسنيم بصرها ناحيته، مرَّت الدَّقائق بين حديث والدي الطرفين اللذين كانوا على معرفةٍ مُسبقةٍ ببعضهم، وبين صمت تسنيم بسبب حيائها ورهبتها من الموقف الذي أنساها التَّركيز في أحاديثهم.

خرج كلٌّ من والدي تسنيم والشاب إلى البهو؛ ليتركوا لهما مساحةً للحديث، كانت متوترةً بشكلٍ أكبر وزادت نبضات قلبها في الخفوق من ذاك الصمت المطبق؛ ليكسره الشاب قائلًا:

-عساك بخير آنسة تسنيم خاصَّةً بعد مسابقة الحفظ والتَّجويد.

ذاك الصَّوت هو نفسه، ولا يمكن أن تخطئ فيه، فلا زال دعاء **"اللَّهم قلبها حتَّى يطمئنَّ قلبي"** يتردَّد بين أضلعها؛ ليجعلها تبتسم لا

إراديًا في كل مرَّةٍ تتذكرَّه، رفعت بصرها نحوه ليقابلها شابّ في أواخر العشرينات، كان ذو لحيةٍ خفيفةٍ، ووجهٍ بشوشٍ يرتدي ملابس رسمية، سرحت قليلًا في ملامحه النورانية بالطيب والعفة؛ لتخفض رأسها بسرعة، فقهقه قائلًا:

-والحمد لله آنسة تسنيم قد كتب الله لنا جميل اللِّقاء بعد طول العمر، ونورالقرآن والخمارظاهرٌعلى وجهك منذ سنة وستة أشهرٍ بالضَّبط، وهذا ما جعلك متلألئة كالقمر.

استغربت من كلامه؛ لتسأله بخفوت:

-كيف ذلك؟ ومن أين علمت أنني ارتديته منذ سنةٍ وستة أشهر؟

-أنا جارك بالحي المقابل، وخالتي هي معلمتك في تحفيظ القرآن بالمسجد، لم نتقابل عن قرب صدفةً لكنني أعلم كلَّ شيءٍ عنك، عن تخصصك الجامعي، حفظك للقرآن، التزامك، مريم وعمر.

انتفضت على إثر ذكره لهذين الاسمين فأردف مسرعًا:

-كنت أعمل مع عمرفي الشركة نفسها، ثم استقلت منذ سنة؛ لأدرس علوم الشريعة بجامعة الدراسات الإسلامية مع عملي الحالي كإمام بذاك المسجد الذي أقيمت فيه المسابقة، علاقتك بعمركانت من الماضي لذا...

قاطعته وهي تشعر بجراحها التي فُتحت من جديد قائلة:

-طالما أنَّك تعلم علاقتي به لما تقدمت لخطبتي؟

-الإجابة ليست الآن لكن أنا أعرف أكثر من أيِّ شخصٍ آخر سبب انفصالكما، إن كان الانفصال بسبب التزامك وارتدائك للخماروالليِّباس الفضفاض فهذا هو الشيء الوحيد الذي جعلني أتشبَّث بك، شابةٌ في ربيع عمرها وفي كامل تفتُّحها كزهرةٍ يانعة قد حافظت على نفسها وقلبها، كلُّنا نمرُّ بفترات انتكاسةٍ نرتكب الذُّنوب والمعاصي، و أفضلنا من عاد إلى ربه تائبًا توبةً نصوح، معرفتي بك كانت منذ زمنٍ طويلٍ، تقريبًا منذ طفولتك.

تمعنت في كلامه؛ لتقابله بعيونها الممتلئة بالدموع فسألته:

-ما الذي يجعلك متيقنًا أنَّك اخترت الشَّخص الصَّحيح؟ وهل سيأتي اليوم الذي ستذكِّرني به وبكلِّ أخطائي وذنوبي التي ارتكبتها بسبب علاقتي به؟

-بل كانت ولم يعد لها أيُّ وجود، طالما أنَّ قلبك مؤمنٌ وعلى يقين بأنه تعلَّق بحبل التَّوبة فاجعليه متعلقًا به أكثر وأكثر، أما أنا فلن أذكِّرك بأيِّ شيء كان من الماضي فكلُّ همِّي أن أمسك بيد زوجتي إلى الطَّريق المستقيم، نتحمل الصِّعاب معا، نعبد ربَّنا معًا، تنتشلني من متاع الدنيا والشهوات و أفعل المثل، نربِّي أبنائنا

كالصَّحابة والصَّحابيات على منهجٍ قويم، نستند على بعضنا البعض ونكون بلسمًا لكلينا حتَّى نلقى الله بقلبٍ سليم، فأرى زوجتي رفيقتي في الجنَّة.

ابتسمت بلطفٍ على كلماته ليردف قائلًا:

-إذا أردت السُّؤال فاسألي الله عنِّي في سجودك وصلاة استخارة، وكوني متأكِّدةً أنَّه بعد ارتياحك ومو افقتك سيتمُّ العقد بعد أسبوعٍ من قرارك، فليس لي طاقةٌ للخطوبة والانتكاسات التي قد تحصل بسببها.

زادت ابتسامتها ووجها محتقن بحمرَّة الحياء؛ لتقول بهدوء:

-إن شاء الله خيرًا سيد...

-يوسف يا آنسة تسنيم.. ثم خرجت مسرعةً ذاك اليوم فقد كانت النَّتائج بعد نصف ساعةٍ من مرورك، وقد حصدت المرتبة الأولى في فئة البنات.

تلألأت عيونها بسعادة؛ ليردف يوسف:

-وهذه هي جائزتك.

مد لها علبةً رماديةً متوسطة الحجم؛ لتشكره بفرح ثم قال لها:

-هل لك أن تفتحيها بعد مو افقتك يا تسنيم.

أومأت له؛ لتنتهي الرُّؤية الشَّرعية ويعود الضُّيوف إلى بيتهم؛ مرَّ يومان بعد عيد الفطر؛ ليردَّ والد تسنيم على أهل يوسف بموافقة تسنيم على الزواج، حينئذٍ كانت تسنيم تجلس على سريرها وأمامها تلك العلبة، فتحتها فوجدت لوحًا مميزًا من الشوكولاتة الممتازة، كتابًا من كتب السِّيرة النبوية، ومصحفًا بني اللَّون مع ملاحظةٍ أُلصقت في أحد جوانب العلبة:

«وعلى يقينٍ بمو افقتك.. هذا مصحفي الذي ر افقني منذ بداية الحفظ إلى أن صرت إمامًا، ابدئي ختمة القرآن من سورة البقرة إلى سورة الناس ففي آخر كلِّ سورةٍ دعاءٌ لك، وعند الانتهاء هناك رسالةٌ تحت المصحف يُرجى قراءتها بعد إتمام الختمة.»

بدأت بالقراءة، وفي نهاية كلِّ سورة كانت تجد وُريقةً صغيرةً بدعاءٍ مختلفٍ يُلامس الفؤاد، مرَّت ثلاثة أيَّامٍ وقد أنهت القراءة، كان عند مرورها بسورة النور وجدت علامةً مميَّزةً على تلك الآية التي تحب، ضمت القرآن إلى صدرها وفتحت آخر ورقةٍ كانت مخصَّصةً بعد الانتهاء من الختم، وهذا كان مضمونها:

«سلامٌ على قلبين إلى أن نلتقي في الحلال،

سلامٌ على عفَّةٍ تدثِّر الشَّغاف وتزيِّن الرَّوح،

وسلامٌ على طهر توبةٍ تنتشلنا من بر اثن الذُّنوب، والمعاصي بالماء والثلج والبَرَد.

دعونا الله وقد كثُرت الدَّعوات، وتزاحمت في القلب حتى اختلطت الأمنيات بالمخاوف، الأحلام بالمواجع، والقلوب بالفتن، وعدتُ أريد الطِّمأنينة؛ لتر افق دربي وسلامًا يبدِّد حزن الفؤاد فيُثلجه بجبرٍ مستكين.

النُّور هو القرآن والإيمان الذي في صدر المؤمن الذي يشبه الزُّجاجة الصَّافية فيَحتضن الفتيل، تلك الزُّجاجة التي تضمُّ النُّور كأنَّها كوكبٌ من در، كوكبٌ مضيءٌ مبينٌ وضخم يصف حال المؤمن الذي يتقلب في خمسة أنوارٍ فكلامه نور، عمله نور، مدخله نور، مخرجه نور، ومصيره إلى النُّور يوم القيامة، إلى الجنَّة.

وربَّما وصال الأرواح هو زجاجة نورٍ من حبٍّ لا يمكن أن يعادله شعور، فكلُّ إنسانٍ له شبيهٌ روحي يتناسب معه، فهو كالرِّزق والأرزاق تُساق إلينا؛ دافئٌ جدًا أن تكون رفيقتي طاهرة القلب، ليِّنة القول، جميلة الرِّوح، طيِّبة الطَّبع، عفيفة القول والفعل، تخاطب عقلي وتلامس قلبي فتلاحق تفاصيلي الصِّغيرة عن ظهر حب، صدقًا سأرى فيها اختلافًا يستحق الوصل، سأستثنيها من بين البشر،

وسأُعاهد الله قتال شوقي وحبِّي بالدُّعاء إلى أن يسوقها الله لدربي في الحلال، فاللَّهم قلبها حتَّى يطمئنَّ قلبي.»

تبسَّمت بسعادة؛ لتهمس برضى واطمئنان:

-دونك يا الله لا نجاةٌ ولا سلام، فاللَّهم تُب علينا وبارك لنا في الحلال.

(2)

أُحجِية الفُسيفِسَاء

مقدمة

هجرنا العالم الو اقعي ولبثنا أمام زاوية انهار ثورة تكنولوجية متقدمة وضخمة؛ قد باتت العقول منحصرة بين فراق عصري، هجران دماغي، مجاعة علمية، وقطيعة تاريخية أدت إلى تفشي داءِ تآكل العقول البشرية...

لكن بين خضم كل هذا لم ينسَ العالَم جذوره العريقة ولا تاريخه؛ ليعيد الهيكلة من جديد بلمسةٍ من عظمة التطور التكنولوجي.

15 نيسان 2523م:

تغير العالَم بشكل جذري بعد الحرب الضَّروس الأخيرة، والآن إنها الفترة الحاسمة لتوقيف فتيل حربٍ قادمةٍ والتي تُنبِّئ من جديد عن كوارث اعتادتها البشرية، بينما سيل الدماء بات يتجرعها كل ما له نبضٌ بالحياة أو على اتصالٍ بالصراع الآدمي في هذه الأرض.

الحرب العالمية الخامسة قد ولى قرعها المدوي، فلم تعد الملاجئ تكفي أعداد البشر المتبقي، لا المؤن والأسلحة تسد الاحتياجات، ولا الأرض عينُها بحاجة لمزيدٍ من الجثث، لنزيف الدماء، ولسعير هذه الحروب؛ لا أحد يريد الحرب لكن الجميع له يدٌ بهذه الجرائم الإنسانية.

كثيرٌ من المباني والمدن أمست مهجورةً من الجثث المتعفنة ومكبات النفايات، ومن الحياة التي لعلها تلتقط أنفاسها الأخيرة عقب الثورة النووية والأسلحة البيولوجية المدمرَّة بآخر قرنين؛ ورغم كل هذا استمر التطور لإحياء الأرض من جديد، فاتفقت هيئة الأمم المتحدة على فرض سلمٍ يشمل العالم أجمع بتدخل العلم والتكنولوجيا.

سارعت الهيئة بفرض القوانين الجديدة فتم تقسيم العالم حسب القارات إلى سبع قواعد رئيسية، اختفت الدول ومعالمها وأضحى البشر سواسية؛ بناياتٌ واسعةٌ قد جاوزت ناطحات السحاب،

مركبـاتٌ متطـورةٌ طـائرةٌ بسـرعاتٍ فائقـة، رجـالٌ آليـون مسـاعدون، وآخـرون يتحكمـون في الأنظمـة، اخـتلاط الأجنـاس والأعـراق بـين بني القـارة الواحـدة، وتغيير نمـط العـيش بشـكلٍ جـذري، فكل منكـب في مهمته الخاصة بينما الحياة قد عادت مشرقةً بين أقفصٍ بشرية.

فقاعـةٌ زجاجيـةٌ ضخمـةٌ تفصل البشر عـن العالم الخارجي والـذي مـا زال ملوثًـا بمُخلفـات الحـروب والصـراعات النوويـة؛ زجـاجٌ ضخمٌ يحـيط كل قـارةٍ على حـدة بينمـا التنقـل متـاحٌ عبر دفعـاتٍ خاصـةٍ وللمسـؤولين فقـط عـن الأنظمـة، مـا عـاد البشـر وحـدهم فالرجـال الآليون أضحوا بالفعل السند الأول مع التكنولوجيا، حينئذٍ قد عادت الحياة سلميةً بحق.

في أحـد المختبـرات الجامعيـة كانـت كعادتهـا تحمـل لوحهـا الإلكتروني وترسم بضع خربشاتٍ، بينما زملاؤها في شعبتها منكبُّون في عملهـم، الكل كـان يرتـدي سـتراتٍ بيضـاء وقائيـةٍ وقفـازاتٍ للحمايـة، يعملون في صمتٍ مهيبٍ وكيف لا والمختبر بطوله وسعته يضم خمسة عشـر طالبًا فقـط، وكل ثلاثةٍ منهم يعملـون في فريقٍ منسجم؛ تحركت بملل وهي تضـع اللوحـة الإلكترونيـة جانبًـا، ثـم دسـت القلـم في جيـب سـترتها الوقائيـة؛ لتنخـرط إليهم بعـدما لاحـت ببصـرها مـن وراء زجـاج المختبر قـدوم البروفيسـور، كان نصـف بشـري بسـبب زراعـة الأعضـاء الاصطناعية في يده اليمنى ورجليه وعينه.

وقفت بين فريقها بسرعة وبدأت بتدوين الملاحظات على شاشةٍ شفافةٍ ظهرت من العدم بعدما حركت بقلم ذكي كلمة "**شاشة**"، كان الكل منغمسًا في دراسة أحد العينات الصخرية الناجية من الإشعاع النووي؛ ليتقدم البروفيسور وهو يرتدي بدلةً رمادية للوقاية مع قفازاتٍ سميكة، كانت أرجله وعينه تظهر حقيقة أعضائه الفولاذية المزروعة بينما كان يرتدي كأي بشرٍ هندامًا أنيقا تحت الملابس الوقائية، فتح الباب الذي كان زجاجيًا؛ لتنبعث رذاذاتٌ خفيفةٌ من المعقم، أغلق الباب وراءه وقال ببشاشة:

-هل أنهيتم دراسة العينات؟ أمامكم مشاريعٌ كثيرةٌ لإنهائها قبل نهاية الأسبوع.

همهم الطلبة ليتقدموا أمام البروفيسور بانتظام، بينما ظلت تلك الأخرى بمكانها تكتب على الشاشة إلى أن أوقفها البروفيسور قائلًا:

-ترتيل تعالي إلى هنا؛ فهناك أمرٌ أود إخباركم به.

أخفضت يدها لتختفي الشاشة تلقائيًا، تقدمت نحوهم وهي لا تدري أهناك كارثةٌ قد حلت أم أنه إعلانٌ لقوانين جديدة، فقد اعتادت على القرارات المفاجئة، القوانين الصارمة، والتغييرات التي تحدثها هيئة الأمم المتحدة بهدف تحسين جودة العيش، لكن كان قرار هذه

الأخيرة قبل أشهرٍ قليلةٍ مفجعًا للبشر، فقد تمت محاولة احتكار النساء بخلع الحجاب من خلال اعتباره موروثًا يجب إزالته حتى يضمن العيش السليم السوي، وهذا ما تم قمعه من قبل فئةٍ كبيرةٍ ظلت متمسكةً بتعاليم الدين رغم مرور السنين واندثار معالم الإسلام بسبب الحروب والآفات، اختفت الدول والحدود ولم يعد الحكم ملكيًا أو جمهوريًا أو حتى خاضعًا لسلطةٍ حسب الجغرافية، وإنما امتد الأمر لتتولى هيئة الأمم المتحدة في تنظيم القواعد السبع ووضع قوانين شاملة دون تمييز بين التكنولوجيا وبين الرجال الآليون المطورون.

لم يعد للدول أيُّ وجودٍ أو معلمةٍ حيَّةٍ تشهد على ما كان سابقًا، فلا الوطن العربي باقٍ ولا الحروب العاتية أو المجاعات الضارية تُطاق، كان الترحيل والهجرة من الجذور إلى أن اختفت تدريجيًا تلك الهوية، تلك الثقافة، وتلك الأصول والتقاليد...

ترتيل لم تنسَ يومًا هويتها المغربية؛ صحيحٌ أنها وبمنتصف عقدها الثاني لم ترَ يومًا المغرب أو تلامس ثَراهُ كما سمعت عنه، لكن بداخلها حنينٌ وشوقٌ يُلامِس الشِّغاف الرقيقة من فؤادها، تعلم تمام العلم أن دماءها ذات أصولٍ عربيةٍ وأمازيغيةٍ حرة، وهي بكل يومٍ في معركةٍ وجدانيةٍ بين مُغالبة هذا الحنين والعودة للماضي، لكنها غير راضية بالواقع ولا بالاحتلال التاريخي والهجرة الدماغية.

يستحيل أن يكون دينها، أصولها، انتماؤها، وجذورها الأصلية مجرد عبثٍ بهويتها، فلم تكن تمل من سماع حكايات جدتها ولا من قراءة بعض المخطوطات القديمة عن تاريخ الأرض ولاسيما حينما كانت الدول مستقلة، لكن أخفى والدها كل ذاك خوفًا من المصادرة والمُساءلة عليها، لطالما شعرت بأن هذه الهوية المغربية الإسلامية ناقصةً وتحتاج لشيءٍ ما؛ ليعيد إحيائها من جديد حتى تشبع غريزتها الدينية والثقافية والوطنية.

كانت ترتيل العربية والمغربية الوحيدة بالجامعة الخاصة لدراسة علوم الأحياء، كما أنها من ضمن المحجبات اللواتي تعرضن للقوانين الصارمة وأنظمة الهيئة من أجل التخلي عن متر القماش كما يزعمون تسميته، وعن التخلف الذي يشوه صورتهم باعتبارهم الوحدة الأقوى بين الكائنات الحية...

فأي ضررٍ وأي تخلفٍ يسببه حجابٌ لا يمسهم بأيّ سوءٍ أو شكل؟ قد ازدهرت البشرية وما زال التخلف الفكري قابعًا في بواطن العقول الجاهلة بحقيقة الإسلام وشريعته، وهذا ما جعل ترتيل مُصممةً وعازمةً على الثبات مع الحق المُزداد بتشبثها بالدين الإسلامي والهوية العربية.

اصطفت بجانب زميلاتها أمام البروفيسور ثم قال:

-لا تقلقوا.. لقد تم منحكم أسبوعًا آخر قبل الاختبارات النهائية، وهناك فرصةٌ للخمسة الأوائل في قاعدتنا في التنصيب بشكلٍ رسمي بأنظمة التحكم والبيئة الخارجية.

سعد الجميع بهذا الخبر ولا سيما أن التنصيب وبالشكل الرسمي بأنظمة التحكم مع هيئة الأمم المتحدة هو منصبٌ قوي، لكنه بحد ذاته رِفعةٌ وفرصةٌ؛ لاكتشاف العالم الخارجي وأبرز التطورات العلمية بالقارات الأخرى، ابتسمت ترتيل بخفة وخيوط التفكير تحيك الأمور جانبًا، فأفاقها من سهوتها تربيتةُ يد زميلةٍ لها على كتفها؛ لتجيبها ترتيل مسرعة:

-ليس هناك أيُّ شيء.. هيا لنكمل العمل.

عاد الجميع للعمل وقد تضاعفت جهودهم من فرط الحماس للخبر، لكن ترتيل كان لها رأيٌ آخر وتفكيرٌ عميقٌ يجوب خاطرها.

مرت الأيام والحماس يدبُّ في نفوس جميع الطلاب من مختلف الجامعات طمعًا بتلك المناصب، بينما كانت ترتيل في أوج اجتهادها وتفانيها؛ كان آخر فصلٍ دراسي بالمختبر حيث تم تكليف ترتيل وزملاؤها بتدوين الملاحظات الأخيرة لتجربةٍ ما، فجأة سطعت شاشةٌ ضوئيةٌ على السبورة الإلكترونية بمقدمة المختبر، ظهر رجلٌ آلي متصل بالأنظمة الإلكترونية وقال بصوتٍ عالٍ مخاطبا ترتيل:

-ترتيل الإسماعيلي مباركٌ لك، قد نجحت في الامتحانات النهائية بمجموع ثمانٍ وتسعين نقطة من مئة.. حصدت المرتبة الأولى بشعبتك كما العادة والثانية على مستوى القاعدة.

مجرد سماع اسمها قد أيقظها من ذاك الشرود، ناظرت الشاشة التي اختفت تدريجيًا ثم ابتسمت لتصفيق زملائها وتهنئتهم الحارة، ومع ذلك تهللت أساريرها عندما قالت بين نفسها:

-وأخيرًا سأحظى برؤية تاريخ المغرب.

أتى يوم التخرج.. كان والدا ترتيل في سعادةٍ بالغةٍ وفي الآن ذاته كانت قلوبهم منغصةً بحزنٍ عميقٍ لفراق فلذة كبدهم الوحيدة، كانت بين الحين والآخر تطمئنهم وتعدهم بالزيارة من آنٍ لآخر، لكنهما يعلمان جيدًا أن العمل مع الهيئة كثيفٌ وممتدٌ أكثر مما هو صعبٌ وخطيرٌ لمواجهة الكائنات الحية المتأثرة بالإشعاعات النووية والكوارث البيئية السابقة.

تم تهيئة انتقال الخريجين الخمسة وكانت بينهم ترتيل التي ارتدت حجابًا رماديًا وبدلةً واسعةً بنفس اللون، كانت تجلس داخل عربةٍ طائرةٍ ذاتية القيادة بين شابتين في مثل عمرها وأمامهم يجلس شابان، كان أحدهما يدعى رائد وقد كان زميلًا لها بالمرحلة الثانوية لكنه

تخصص فيما بعد بعلوم الهندسة التكنولوجية الجديدة؛ مضت لحظاتٌ أشبه بالثواني ليجدوا أنفسهم في عالمٍ آخرٍ مختلفٍ كليًا.

إنها القارة الآسيوية حيث منطلق كل هذا الإبداع التكنولوجي الخارق، عالمٌ أكبر وأضخم، بل أفضل بمئات المرات من التطور الذي كانوا فيه، تقدم الخمسة وراء استقبال مسؤولين ليتم تعيينهم في مراكز مختلفة، حددت لهم الإرشادات والمهام ثم كل الواجبات التي سيتم العمل عليها انطلاقا من الغد؛ ليستقروا في مساكنهم.

لم يأخذ الأمر وقتًا طويلًا حتى تستوعب ترتيل المكان الذي هي به، تخلت عن الاستمتاع والتأمل لتشغل عقلها بما هو أكبر وهو زيارة متحف **"الألفا"** التكنولوجي الذي شُيِّد منذ قرنين، ويضم تاريخ البشرية وتلك العصور والحضارات المخفية بفعل الحروب والكوارث منذ أول وجودٍ على الأرض إلى الوقت حالي.

استيقظت على صوت منبه إلكتروني كان بجانبها، ناظرت سقف غرفتها التي كانت عبارة عن كبسولة تضم كل احتياجاتها؛ مكان للأكل قربه خزانةٌ فولاذيةٌ للملابس والمحتويات الشخصية، مكتبٌ صغيرٌ مع شاشةٍ إلكترونية، حمامٌ وبجانبه رجلٌ آلي صغيرٌ موضوعٌ في أحد الزوايا للشحن؛ تنهدت بعمق وما إن أزالت الغطاء حتى أزيلت الستائر وانفتحت الشرفة على واجهةٍ شاهقة تظهر العالم الجديد، الشمس

ما زالت تثاءب بدفءٍ وسط الظلام، لكن يكاد المتأمل لخيوطها البازغة أن يراها تتراقص على أوتار الديجور لتأكله بهدوء، ومع الزجاج كان المناخ معتدلًا بتحكم الأنظمة.

تململت بكسلٍ وتوجهت للوضوء فالصلاة، بعدما انتهت حملت لوحها الإلكتروني وفتحت واجهة القرآن لقراءة وردها اليومي الذي لم تنساه يومًا منذ أن حفظته في العاشرة من عمرها، ليس كتقليدٍ من والديها، بل حتى يكون الحفظ في الصدور، وتثلج الفؤاد بالآيات البيّنات.

مرت ساعةٌ حتى وجدت ترتيل نفسها أمام مختبرٍ ضخم يضم عيناتٍ من النباتات والحيوانات داخل صناديق زجاجية، كان العاملون منشغلون بدراسة العينات والرجال الآليون بدورهم كانوا يساعدونهم في نقلها أو تحليل المعلومات، مختبر واسع ومشرق بالأضواء بينما الشاشة الرئيسية للعمل كانت في آخر المختبر بجانبها رجلٌ آلي ضخم متحكم في النظام والنوافذ الزجاجية تطل على مختبرات جانبية، قادها أحد المسؤولين بعدما رحب بها وأرشدها إلى مكانها المخصص، جلست بجانب شاشةٍ صغيرةٍ لأحد العينات فتقدمت امرأةٌ بملامح آسيويةٍ في أواخر الثلاثينات ترتدي ملابس رسمية، ابتسمت فقال المسؤول:

-هـذه السـيدة نيكـول دكتـورة في علـوم التكنولوجيـا الدقيقـة ورئيسـة وحـدة المختبرات والتجـارب العلميـة بقسـم الأحيـاء.. ترتيـل الإسـماعيلي مـن القاعـدة الإفريقيـة، طالبـة مجـدة وذكيـة كمـا أنهـا الأولى بتخصص علوم الأحياء؛ يرجى إرشادها سيدة نيكول.

اتسـعت ابتسـامة كلٍ من ترتيل والسـيدة نيكول؛ ليرحل المسـؤول بعـدها، بـدأت السـيدة نيكـول في شـرح المهـام بينمـا ترتيـل تُخـزِّن التعليمات بعقلها وتسجل أهمها في اللوحة الإلكترونية.

بـدأت ترتيـل في تحليـل نتـائج اختبـار بعـض العينـات النباتيـة بمساعدة رجل آلي أعد لها جداول مفصلة عن حياة العينة منذ نموها إلى إصابتها بالإشعاع النووي، وانقضى يومها بين دراسة العينة ووضع التقرير النهائي لها.

حـل المسـاء؛ لتعـود إلى مسـكنها الجديـد، كـان بينـه وبـين مكـان العمـل منطقـة خضـراء شاسـعة بعيـدة عـن الأنشـطة البشـرية والمواصلات، بجانب مقر العمل والأبحاث الذي عينت فيه ترتيل كان هناك برج ضخم حيث الحركة حوله قليلة بسبب الحراسة المشددة.

اسـتلقت ترتيل على السـرير بعدما أدت فرائضها، وتحدثت قليلًا مـع والـديها عبر اتصـال مرئي مـن لوحتهـا الإلكترونيـة، كانـت تتأمـل السـقف وتنـاظر ما وراء النافـذة لتلك النجـوم البراقـة في غسـق الدُّجى،

تحمل بيدها اليمنى لوحها الإلكتروني وقد رسمت فيه العلم المغربي، سرحت بها الأفكار بعيدًا عن الواقع لتتساقط دمعةٌ لألمٍ داخلي، لطالما تمنت لو وُلدت في زمنٍ غير هذا، لو اختفت من هذا العالم الموحش بالتكنولوجيا وسيادة الرجال الآليون، لو عاشت داخل تلك الكتب والمخطوطات القديمة التي قرأتها، ولو صارت إحدى الشخصيات التاريخية بزمانٍ غير ملوثٍ بفعل الحروب الإنسانية ولا الاجتياح التكنولوجي، لم تعتبر ترتيل يومًا أن الجنس البشري تطور من أجل الحفاظ على ما تبقى منه فالعكس هو ما حصل، قد بدأ الإنسان بفقدان الجوهر منذ أن قرر التخلي عن الهوية والتاريخ.

مرت بضعة أشهرٍ على استقرار ترتيل وتأقلمها على الحياة الجديدة بعيدًا عن والديها، كانت تستعد كعادتها من أجل بدء العمل على أحد العينات؛ ليوقفها صوت السيدة نيكول وقد تجسدت صورتها انطلاقًا من شاشة كان يحملها الرجل الآلي المساعد لها، حيَّتها ببشاشة وقالت:

-صباح الخير ترتيل.. اليوم هناك اجتماع للمستجدين الجدد من أجل المشروع الجديد، سيكون بعد ساعة وسيرشدك مساعدي آلان الرجل الآلي.

أومأت لها تسنيم ثم اختفت الشاشة في لمح البصر، غادرت المختبر بعد ربع ساعة لأحد الغرف الخاصة بالمعدات وبدلات السلامة لتغيير بدلتها الخاصة؛ خرجت من غرفة التبديل ليُرشَّ عليها مباشرةً معقمٌ خفيفٌ ذو رائحةٍ خفيفةٍ كزهور البرتقال، استنشقت بعمق تلك الرائحة وهي تُمني نفسها بزيارة حقول البرتقال الطبيعية وليس تلك الحقول المصنعة والمعدلة وراثيًا، فلم تعد للزراعة التقليدية أيُّ وجودٍ منذ أزيد من ثلاث قرون؛ وجدت في انتظارها رجلٌ آلي يشبه الإنسان تمامًا، جلده كان كالبشر لكنه من البلاستيك المطاط، يرتدي ملابس أنيقة مع تسريحة شعرٍ مرتبة لكن الاختلاف في عيونه الزرقاء اللامعة والشرارة الحمراء بمعصم يده اليسرى، رحب بها قائلًا:

-مرحبًا آنسة ترتيل.. أنا آلان مساعد الدكتورة نيكول ومرشدك إلى اجتماع قادة المستقبل.

تعجبت فسألته:

-قادة المستقبل؟!

مد يده ناحية مصعدٍ قد انفتح لتتوجه إليه ترتيل ثم تبعها مُفسرًا:

-اجتماع قادة المستقبل هو مشروع جديد يخص آخر تطورات التكنولوجيا الحديثة والذكاء الاصطناعي للجيل الحالي.

دلفت ترتيل المصعد مع آلان ليقول:

-الطابق "جيم 455".

تغيرت واجهة المصعد وكأنه انتقل لجانبٍ آخرٍ قبل أن يبدأ في الصعود إلى الطابق المطلوب، وتلقائيًا بدأت الواجهة الزجاجية تطل على منظر الطبيعة وذاك البرج الشاهق بعيدًا عن المناطق الحضرية والمواصلات.

كان آلان حينئذٍ قد صمت قليلًا لتسأله ترتيل مرَّة أخرى:

-هل الذكاء الاصطناعي أصبح مرتبطًا بالتكنولوجيا الحديثة؟ كنت أظن أنه متحكم فقط بالأنظمة المعلوماتية، الإنترنت، الشرائح الدقيقة والأعضاء الاصطناعية.

ابتسم ونفى حديثها قائلًا:

-على العكس، تم دمجهما منذ زمن ليرتكزا معًا على تكنولوجيا الأحياء الدقيقة، الآلات الرقمية والدراسات العلمية الجديدة... تطورت التكنولوجيا ببطءٍ شديدٍ نظرًا لتأثيرات الكوارث وتغير الأوضاع بالعالم نتيجة الحرب العالمية الثالثة فالرابعة، ومخلفاتهما إثر استخدام القنابل النووية، وقد أحدثت الحرب

الأخيرة تغييرات مناخية كثقوب الأوزون وتفاقم أزمة الماء، ومع ذلك العلم كان في تطورٍ طفيفٍ جراء قلة الإمكانيات.

-لكن في ظل كل هذا كيف تم إصلاح الأرض بسرعة؟

-نقطةٌ مهمةٌ وهي الأرض.. الأرض هي المصدر الوحيد لعيش البشر رغم تواجد بيئاتٍ أخرى صالحةٍ بالكون إلا أن المميزات واسعةٌ وشاملةٌ هنا؛ أقل من مئةٍ وعشرين سنة عُقِد مؤتمرٌ عالمي؛ لتحسين حياة البشر و إنعاش الأرض من جديد، تم دراسة نماذج لتطوير العلوم والتكنولوجيا خاصةً الطب، ليتم دمجه مع الهندسة التكنولوجية والذكاء الاصطناعي في قطاعٍ واحدٍ يُعرف الآن بزراعة الأعضاء الاصطناعية الذكية.

وصل الاثنان إلى الطابق، ثم توجه آلان إلى أحد النوافذ الزجاجية الشفافة، كانت النوافذ تطل مُباشرة إلى ذاك البرج في ارتفاعٍ يقارب خمسمائة طابقٍ من على سطح الأرض، ولم تعد المساحات الخضراء وتلك الطبيعة تظهر بسبب الارتفاع لكن السحب البيضاء الناصعة قد زينت الأفق..

وقف كلٌ من آلان وترتيل أمام الزجاج وكانت هذه الأخيرة مستغربة من وقوفه، وفي الثانية عينها ظهر ضوء من الزجاج قام بمسحٍ لجسد ترتيل، رفع آلان يده ليتم مسح يده ثم ظهر ممرٌ يصل

بين منشئة العمل والبرج، فُتح الزجاج جانبًا؛ ليسمح لهما بالمرور فتقدم الاثنان.

ساد هدوءٌ عميقٌ في ذاك الممر الطويل، كانت ترتيل تتأمل لتلك السحب وعظمة الخالق، وفجأة ظهر انزعاجٌ طفيفٌ على ملامحها بعدما توقفت قليلًا للراحة؛ ليقول لها آلان:

-لا يمكن الوصول إلى البرج إلا عبر هذا الممر الطويل، ثم الاجتماع سيكون مشوقًا لك ستحضرينه مع المستجدين الجدد، رؤساء هيئة الأمم المتحدة، و أبرز العلماء والمخترعين.

عادت للسير فانتبهت لكلماته وسألته:

-و أنت، ألن تحضره معنا؟

-كلا لدي مهمة بمتحف "الألفا" لكنني سأكون مُلمًا بالتفاصيل.

-متحف الألفا؟ أهو المتحف التكنولوجي لتاريخ البشرية.

-نعم كذلك، أراك قد أصبحت أكثر حماسًا عند ذكري لمتحف "الألفا".

ترددت ترتيل في الإجابة؛ لأنها تعلم أن أفكارها يجب أن تحتفظ بها لنفسها وليس لتشاركها، خاصة مع رجل آلي ذكي ومسؤول، يمكن أن يضع حياتها على المحك بأسرارها، فلكل فعلٍ ردة فعل، لكن قد تكون العاقبة أكبر من الفعل، تأملته برهةً ففاجأها قائلًا:

-لست رجلًا آليًا عاديًا آنستي الصغيرة، عمري أزيد من قرنين وبين كل عقد يتم تطويري بأحدث التقنيات، وفي هذه اللحظة قد قمت بتحليل ذاتك من شخصيتك، طباعك، تفكيرك، وحتى نقاط قوتك وضعفك، تذكري أن وجودك هنا لم يكن ولن يكون عبثًا.

فزعت لكلامه وكأن سرها قد انكشف لتنعقد الكلمات بين لسانها، فأردف ضاحكًا:

-لا تفزعي، ليس كل الرجال الآليين لديهم هذه القدرات المتطورة والمدمجة بالذكاء الاصطناعي، لكن صدقيني القادم سيكون أكثر تقدمًا و إبداعًا، وبالمناسبة يمكنني أن أكون صديقًا لك.

ابتسمت تسنيم في هدوء بعدما شعرت ببعض الطمأنينة من كلامه الأخير؛ لتجيبه:

-شكرًا لك آلان.

وصلا إلى نهاية الممر لينفتح الباب على حجرةٍ واسعةٍ تضم مائدةً دائرية الشكل وكبيرة يحيط بها مجموعةٌ من المسؤولين وبعض الشباب في مثل عمر ترتيل وأكبر، ألقت السلام وتقدمت فجلست في أحد الكراسي الفارغة، كان آلان حينئذٍ قد رحل بينما ترتيل بدأت تستكشف المكان؛ حجرةٌ ضخمةٌ يحيط بها الزجاج من كل جانب ما عدَا الأرضية التي كانت فولاذية، كان أمام كل شخصٍ لوحةٌ إلكترونيةٌ وبمنتصف المائدة كرةٌ صغيرة، لاحت بنظرها لتجد أزيد من مئة شخص حول المائدة من بينهم رائد الذي كان يجلس بعيدًا منها، كان تقسيم الرُّتب حسب الملابس فالمستجدين الجدد كانوا يرتدون بدلاتٍ زرقاء ومن ضمنهم ترتيل التي بدورها ارتدتها بعد تغييرها لملابس العمل مع حجاب أبيض، كان المسؤولون يرتدون بدلاتٍ رسمية في الرمادي بينما العلماء والمخترعين تميزوا بالبدلات البيضاء الخاصة بالمختبرات... مرت بضع دقائق ليتقدم رجلٌ من هيئة الأمم المتحدة، كان قمحي البشرة وفي الخمسينات من عمره يرتدي بدلةً أنيقةً سوداء ونظارةً طبيةً ذكية، ضغط على أحد الجوانب من نظارته لتتحرك الكرة تلقائيًا وتنفتح، ظهرت منها بعض المجسمات بصورة ثلاثية الأبعاد ثم قال:

-مرحبا بكم في اجتماع قادة المستقبل.. نعم فأنتم هم القادة وصناع الغد، هذا الاجتماع هو الأول والفريد من نوعه؛ لأننا بصدد

تغيير مستقبل البشرية، الفكرة كانت من اقتراح البروفيسور ويلسون، وهو الذي سيقدم لكم الشرح المفصل عنه.

وقف رجل في أواخر الستينات من عمره لكنه ما زال يبدو كشابٍ ثلاثيني من بنيته الرياضية وقامته العريضة، تبسم ورفع أحد الأجهزة ليبدأ النقر بالقلم الذكي:

-مرحبا.. معكم البروفيسور ويلسون متخصص في علوم التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، كما أنني دكتور في علوم الفلك والفيزياء، الفكرة الأساسية هنا هي العمل معًا من أجل إنقاذ الأرض وتطوير حياة البشرية، لهذا ارتأيت أن أقدم فكرة مشروع السفر عبر الزمن...

قاطعه أحد المسؤولين قائلًا:

-هذه الفكرة سخيفةٌ يا ويلسون، منذ أكثر من خمسمائة سنة والبشر يتحدثون عن السفر عبر الزمن، و أنت ستأتي ببساطةٍ لتطبيق الفكرة.

-على العكس سيد آرثر، السفر عبر الزمن سيقتصر فقط على السفر والعودة دون تغيير أو إحداث أي شيء.

سألته أحد العالمات:

-كيف ذلك؟ وما الغرض من السفر عبر الزمن ونحن بكل يوم نشهد تطورًا عظيمًا؟

تنهد ويلسون وقال:

-دعوني أكمل الشرح أولًا، ثم نأتي بالمداخلات.

أومأ كل الحاضرين بينما ترتيل تفتحت كل حواسها منذ سماعها لفكرة السفر عبر الزمن، بدأ البروفيسور في عرض بعض النماذج والحسابات؛ ليردف قائلًا:

-السفر عبر الزمن فرضيةٌ تم نسجها منذ زمن لربما قبل الحرب العالمية الأولى، التجارب السابقة كانت بحاجة لدراساتٍ أعمق، علمٍ متطور، وذكاءٍ اصطناعي عالي الدقة، نحن على قيد الحياة بفضل التكنولوجيا والتطورات المذهلة بينما يمكن تسخير هذه الفرصة بهذه الفكرة، فالإثباتات حول إمكانية السفر عبر الزمن كلها صحيحةٌ لكن المعادلات خاطئة، فحالما يتم تغيير الأحداث سواء بالماضي أو بالمستقبل تتشابك خطوط الزمكان بين العنصرين -الماضي والمستقبل- مع الحاضر وقد يؤدي ذلك إلى فجوةٍ زمنيةٍ ضخمةٍ كتآكل الثقوب السوداء.

اختفت المجسمات المعروضة؛ ليظهر تصميمٌ للوحٍ يشبه القرص والذي تفكك بحركة يد البروفيسور، انبهر الجميع لدقة التصميم وأردف:

-هذه هي الوسيلة التي اعتمدتها للفكرة قد قمت بتصميمها وما يزال يمكننا العمل عليها، نحن بحاجة إلى كل العلوم من أجل دراسة العينات والتراكيب، ولفريقٍ حازمٍ ستجرى عليه الاختبارات بعد كل تجربة وإن كانت فاشلة... فالفشل هو من سيحدد لنا عنصر الدقة والصواب قبل حدوث أي مشكلةٍ مستقبليةٍ مرتقبة.

ارتفع صوت أحد المستجدين والذي كان رائد من القاعدة الإفريقية قائلًا:

-لكن إن لم يكن باستطاعتنا تغيير الماضي أو المستقبل لما سنتكبد كل هذا العناء؟

ابتسم البروفيسور والذي كان مسؤولًا على قطاع عمل رائد وأجابه:

-سؤالٌ نبيهٌ يا رائد، السفر إلى المستقبل هدفه استكشاف الجديد خاصةً بالعوالم الخارجة عن كوكب الأرض والسفر إلى الماضي...

لاحظ الجميع صمته المفاجئ؛ لتردف ترتيل مكانه:

-بينما السفر إلى الماضي هدفه تأريخ الماضي وتلك الحضارات بأدق التفاصيل، وتدوين ما تم نسيانه أو اختلاقه عن عمد، ففي التاريخ هناك فجوات زمنية بين الأحداث وتعاقب حضارات وعصور منسية، كما أن مسألة الانفجار العظيم ما زال وإلى الآن مصدر حديث ونقطة استفهام للبشرية.

صفق الدكتور ويلسون؛ ليتبعه الموجودين فقال:

-أصبتِ فهذا صحيح.

أكمل البروفيسور حديثه بين مداخلات المسؤولين وهيئة الأمم؛ ليتم القبول وتوزيع المهام والجداول الزمنية، تفرق الجمع حسب الأبواب التي أتوا منها، لكن ترتيل ترددت في العودة بمفردها؛ لتجد الدكتور ويلسون يناديها، وجدت الحجرة قد أُفرِغت تمامًا من الحاضرين فتقدمت نحوه ليقول لها:

-آنسة ترتيل آلان ما يزال بمتحف "الألفا"، أيمكنك القدوم معي لزيارته حتى يعيدك إلى المقر؟

ترددت ترتيل قليلًا، لكنها أخفت قلقها لتجيبه:

-حسنا.. لا مشكلة في ذلك.

توجهت معه نحو بابٍ رئيسي ثم ناحية مصعد، دلفاه معا ليضغط البروفيسور على شاشة كاتبًا رقم الطابق 55 مع علامة **"ألفا"**، بدأ المصعد بالنزول تدريجيًا وكان الزجاج محيطًا به من كل جانب ليكشف عن منظر الغروب وتدرجات الغيوم، سرحت ترتيل بهيام في ذلك المنظر الخلاب؛ لتقول بصوت هامس:

-سبحان الله.

تبسم البروفيسور وأجاب:

-نعم عظمة الخالق سبحانه لا يمكن أن يضاهيها أي شيء في هذا الكون.. فالحمد الله على عظيم إبداعه.

تعجبت ترتيل من كلامه لتسأله:

-أأنت مسلمٌ بروفيسور؟

-نعم.. ليس لأنني أشقرٌوأعمل مع الأجانب لست مسلمًا أو إفريقيًا حتى.

بالفعل كان أشقرًا لكن أصوله الإفريقية جعلها متفاجئةً قليلًا؛ لتكتفي بابتسامة بشوشة، انكشفت الطبيعة من بعيد بعدما جاوز المصعد الطبقات الشاهقة، فانفتح المصعد على رواقٍ ضخم مزينٍ ببعض التماثيل القديمة، الآثار الحجرية، القطع النادرة، والكتب

والمخطوطات القديمة؛ كانت كل قطعةٍ مصفوفةٍ في صندوقٍ زجاجي وتحته لوحة إلكترونية، زاد انبهار ترتيل بهذا الجمال التاريخي؛ ليقول لها البروفيسور ويلسون:

-أهلا بك في متحف "الألفا" آنسة ترتيل.

ابتسمت شاكرةً إياه، وبدأت تتجول في ذاك الرواق، كان يغلب عليه اللون الأبيض والزجاج الشفاف الذي يظهر تلك الطبيعة الخلابة، لكن التنظيم وطريقة العرض قد سلبا عقلها، كانت تنقلاتها كالفراشة الحرة تطير من صندوقٍ زجاجيٍ لآخر وهي تُطالع محتواه، دخل آلان من أحد الأبواب واقترب من ترتيل التي كانت تتأمل آنيةً من الفخار والبروفيسور بقربها فقال:

-يمكنك وضع يدك على اللوحة.

انتبهت له ترتيل ووضعت يدها بلهفة ليخرج صوتٌ أنثويٌ مع تصاميمٍ ثلاثية الأبعاد بألوانٍ زاهيةٍ تعرض الآنية، بدأ الصوت يشرح لها تاريخ الآنية، موطن الصناعة والكيفية مع بعض المعلومات، انتقلت ترتيل إلى قطعة أخرى للباس تقليدي يشبه الجلباب وآخر للقفطان، ثم إلى كتاب آخر تاريخي، مرت الدقائق مسرعة؛ لتفتت ترتيل إلى آلان والبروفيسور وحمحمت بخجل:

-أعتذر، لقد تحمست...

قاطعها البروفيسور ويلسون قائلًا:

-لا عليك.. هنا تاريخ القاعدة الإفريقية يمكنك الاستكشاف أكثر.

ابتسمت؛ ليردف آلان مكانه بعدما ناظر البروفيسور نظرةً غير مفهومة بالنسبة لها:

-لم تشاهدي الكنز الحقيقي لتاريخ إفريقيا، تعالي لرؤية أروع إبداعٍ لقارتك الأم.

تبعته بخطواتٍ وئيدةٍ وعيونها تلمع انبهارًا بالتحف، كان خلفها البروفيسور ويلسون، لكنه سرعان ما جاورها في الخطى ليقول:

-هنا جمعت كل التحف ليتم الحفاظ عليها من الإشعاع النووي والحروب... تمت مصادرة العديد منها بعدما تمت سرقتها أو تخزينها من قبل البشر، فسياسة منظمة الأمم المتحدة الأولى تنص بحفظ التراث والثقافة والأصل البشري حتى تجده الأجيال القادمة محفوظًا.

توقف الثلاثة أمام ستارٍ أحمرٍ ذو عرضٍ يصل إلى عشر أمتار على جدارٍ أبيضٍ يحيطه زجاجٌ بالكامل، رفع آلان راحة يده لتنفتح الستارة مع الحركة كاشفةً عن لوحةٍ بيضاءٍ فارغة، ثوانٍ مرَّت حتى

أزيل الزجاج؛ ليترك مساحةً لرؤيةٍ أوضح، سطع ضوءٌ أزرقٌ من يد آلان مبرزًا شيفرةً معقدةً من الأرقام والحروف والتي طُبِعت في ذاك البياض لتظهر معالم اللوحة الفنية والتي كانت من الفسيفساء، اقتربت ترتيل بحذر وهي تُطالع اللوحة بأعينٍ لامعةٍ من شدة الانبهار، لكنها لاحظت عشر أجزاء ذات أشكال هندسية ناقصة، تمعنت اللوحة جيدًا وهي تتفحص الشخصيات النسائية بفضول؛ ليكسر الصمت صوت البروفيسور:

-إنهن أميرات المغرب بفتراتٍ تاريخيةٍ قديمة، يُقال بأنهن أشجع النساء المغربيات وكُنَّ رمزًا للثقافة والدين، للشهامة والرزانة والحكمة، لكن تاريخهُن مجهولٌ بسبب ما آلت إليه الحروب من فقدانٍ لتاريخ هذه اللوحة الفريدة، ومنذ أكثر من خمسة قرون لا نعرف عنهنَّ شيئًا... هذه اللوحة تدعى بأحجية الفسيفساء، لأنها فعلًا أحجيةٌ مصنوعةٌ من قطع الفسيفساء المغربي الأصيل لكن كما ترين بعضها مفقود.

همهمت ترتيل بهمس لتسألهم:

-هل ستظل هذه الأحجية بدون حلٍ أم أن التاريخ المغربي مهضومٌ حقه لأنه بلدٌ عربي؟ لكن لما تخبرني أنا بالذات؟

-لأنك الأصل يا ترتيل، والوحيدة المتشبثة بالدين والهوية والتاريخ المغربي من الجذور، ولعلك المفتاح لهذه الأحجية المعقدة.

بادلها البروفيسور نظراتَ أملٍ بعد حديثه ليعقِّب آلان:

-هذه اللوحة الفسيفسائية من تصميم أحد الملوك العُظماء بالمغرب، والغريب أن التصميم أصلي من فسيفساءٍ حقيقيٍ ونادر، لكنه مشفَّرٌبطريقةٍ ما، وكأنه تمت حمايته بواسطة تكنولوجيا متقدمة جدًا تفوق ما توصلنا إليه بمئات المرات.

ركزت ترتيل في الشخصيات وحاولت تخيل الملامح لأن القطع الناقصة كانت لملامح الوجوه العشرة، اقتربت أكثر من اللوحة وقالت:

-حقًا.. مُبتغاي معرفة تاريخ المغرب فهو تاريخ أجدادي، دائمًا ما شعرت بالغبطة تُجاه من عاشوا بالقرن الواحد والعشرين وما قبله، ثم قصة هذه اللوحة التاريخية خياليةٌ وفريدةٌ في الآن ذاته.

أجابها البروفيسور:

-نعم كذلك، استخدام الفسيفساء يعود لزمن السومريين والرومان، لكن العرب أبدعوا ليجعلوه أعجوبة العصر بتلك الأشكال الهندسية الدقيقة، التشكيلات المتناسقة، الألوان الطبيعية، والتصاميم الرائعة... وما زال التاريخ شاهدًا على أن

الفسيفساء هو فن العصور الإسلامية بامتياز والذي أبدع فيها المسلمون فطوَّروه وتفننوا به، ولأهل المغرب تاريخٌ مجيدٌ في إضفائه بالمساجد والمآذن والقباب وفي القصور والنوافير والأحواض المائية...

بأنامل رقيقة لامست ترتيل أحد قطعها البراقة حتى وجدت نفسها قد انتقلت لعالمٍ يسوده البياض بالكامل، التفَّت حول نفسها ونادت كُلًا من البروفيسور ويلسون وآلان بهلعٍ ولم تجد ردًا، مرت الدقائق سريعًا؛ لتتشكل اللوحة الفسيفسائية أمامها وانبعث من خلالها صوت آلان الذي صاح قائلًا:

-ترتيل هل أنت بخير؟ إنها فجوة زمنية وفاصل زمكاني لتاريخ المغرب، وربما نظرية السفر عبر الزمن تقبع بهذه اللوحة.

بدأت ترتيل في استيعاب الأمر لتجيب آلان بتلعثم:

-حسنا.. إذن.. أخبرني أين أنا؟... ولما البياض الناصع يحيط بي من كل جانب، حتى من اللوحة أصبحت بيضاء؟

-اللوحة محفوظة بشفرةٍ معقدة، بعد ملامستك للوحة قد انتقلت للزمن الذي تم فيه صناعتها وتزيينها بقطع الفسيفساء، قمت بتحليلٍ دقيقٍ للوحة واكتشفت بأن الشفرة مُرقمة بعددٍ تسلسلي انطلاقًا من رقاقةٍ دقيقةٍ مزروعةٍ بها، فبعد الملامسة

حصل تطابق جيناتك العربية الأمازيغية بالرقاقة، والآن اللوحة فارغة تماما هنا.

-كيف تتحدث معي والبروفيسور لا يفعل ذلك؟

-لأنني رجلٌ آلي متصل بالذكاء الاصطناعي، و أنظمة القاعدة أتحكم بها تلقائيًا كما أن اللوحة قد سمحت لي باختراق الرقاقة، حاليًا بإمكاني التواجد معك، لكن حين المهمة سأسدي لك النصائح والإرشادات.

حين ذكره للمهمة ارتعدت أوصالها وسألته:

-مهمة.. أي مهمّةٍ هذه؟

أمام اللوحة البيضاء عرضت عليها الشخصيات بدون ملامح كما رأتها مسبقا، وفي لمح البصر تشكل صندوقٌ صغيرٌ خشبي مزخرفٌ بعلم المغرب، فتحته ترتيل؛ لتجد فيه رسالةً ورقيةً فتحت الرسالة، وكان مكتوبًا فيها بالحبر:

«تهاني لك، قد تطابقت الجينات مع التسلسل المشفر فأصلك المغربي ذو الجذور الأمازيغية العريقة هو من نقلك لتقاطعات الزمكان، و أنت الوحيدة التي ستتمكن من حل الأحجية الفسيفسائية المعقدة..

إنهن "العشر الحسان" كما سماها ملكٌ عظيمٌ مغربي من ملوك القرن الواحد والعشرين، ومهمتك إعادة قطع الفسيفساء العشر؛ لتكتمل اللوحة الفنية...»

ذهلت مما رأته لكن سرعان ما تغير المكان حولها لقصرٍ ملكي مزينٍ بالأثاث الفريد والنادر من الخزف والفخار... ظلت متصنِّمةً مكانها تحمل الصندوق الصَّغير بين يديها بينما الرسالة قد تلاشت تدريجيًا عند انتقالها، بدأت تتفحص المكان وقد كان فارغًا من البشر، بدأت تخطو بحذرٍ؛ لتجد أول قطعة فسيفساءٍ بيضاء كانت على الأرض، وضعتها داخل الصندوق وتوغلت في ذاك الرواق؛ لتلمح مزهريةً كانت مزينةً بقطع من الأحجار الكريمة ومن بينها قطعةٌ خضراءٌ لفسيفساء مربع الشكل، وجدت بعدها قطعةً حمراء في أحد الأعمدة، واحدةً صفراء بزجاج نافذة، أخرى بنيةً عند أحد الرفوف المكتبية، وأخرى زرقاء داخل صحنٍ من الفخار، دلفت بهوًا فسيحًا ومفتوحًا، تتوسطه نافورةٌ تنبض بالحياة، فالمياه تنساب بازدواجيةٍ بينما أشعة الشمس تنعكس؛ لتضفي قوس قزحٍ صغيرٍ من أحد الزوايا، والطبيعة الخضراء من النباتات والأزهار قد أضافت لمسةً بهيةً لهذا الجمال، لمحت بالنافورة قطعتين مضيئتين، وما إن اقتربت حتى وجدتهما قطعتي فسيفساء، واحدة كانت باللون البنفسجي والأخرى بالوردي، التفت حول النافورة؛ لتجد بوسط صحنها الأبيض الزليجي

قطعةً سوداء، مدت يدها؛ لتلامس برودة الماء ثم انتشلت القطعة بسرعة، بدأت تبحث بالمكان عن القطعة الأخيرة؛ لتجدها أخيرًا موضوعةً بأحد اللوحات، لامست القطعة الفضية بأنامل مرتعشةٍ وابتسامةٍ واسعةٍ وسرعان ما سقطت في يدها؛ لتضعها في الصندوق، ألقت نظرة سريعة على القطع العشر من الفسيفساء وكان لكل قطعةٍ لونٌ وشكلٌ وبريقٌ خاص، أغلقت الصندوق بإحكام فعاد بها الزمن إلى جانب البروفيسور وآلان اللذان سعدا برؤيتها، حكت لهما تفاصيل سفرها عبر الزمن للقصر الملكي، وجمعها لقطع الفسيفساء حسب الرسالة، انتبهت للصندوق الذي كان بيدها ففتحته؛ لتخرج الأحجار تلقائيًا وتصطف أمام اللوحة، وجد البروفيسور وآلان ترتيل وقد تقدمت مرَّة أخرى إلى اللوحة، أعادت ترتيب الأحجار داخل اللوحة؛ لتظهر عشر رقاقاتٍ إلكترونيةٍ بحجم البطاقات العادية أمامها، وبدأت تستعرض معلومات الشخصيات تلقائيًا بالكتابة مع قراءة آلان...

البطاقة البيضاء:

«كنزة الأوْرَبية التازية المغربية؛ عرفت بجمالها وحيائها، رأيها ودينها، شجاعتها وقوتها البالغة فقد حافظت على نسل السلطان إدريس الأول بتربية ولي العهد إدريس الثاني أسمى تربية؛ لتولي بعده حفيدها السلطان الثالث على حكم الأدارسة.»

البطاقة الخضراء:

«فاطمة الفهرية امرأة قيروانية مسلمة، لُقبت بأم البنين وتعود أصولها إلى ذرية عقبة بن نافع الفهري القرشي فاتح تونس ومؤسس مدينة القيروان، جمعت بين الزهد والورع والغنى؛ لتترك خلفها بصمةً إسلاميةً متميزةً في بناء جامع القرويين، والذي أصبح فيما بعد أقدم جامعةٍ بالعالم.»

البطاقة الحمراء:

«زينب النفزاوية من أشهر النساء الأمازيغيات خلال عصر الإمبراطورية المرابطية، إذ لعبت دورًا كبيرًا في إرساء وتثبيت دعائم

دولة المرابطين بالغرب الإسلامي، وكانت تتصف باللبابة ورجاحة العقل، فضلًا عن جمالها وحسنها.»

البطاقة الصفراء:

«فانو اللمتونية محاربة صنهاجية من قبيلة لمتونة الأمازيغية، برزت خلال العهد الأخير للدولة المرابطية، وتميزت ببسالتها وجرأتها في محاربة الرجال دفاعًا عن القصر السلطاني.»

البطاقة البنية:

«الزهراء الوطاسية هي أميرة مغربية لعبت دورًا مهمًا في آخر الدولة المرينية وأول عهد الدولة الوطاسية، ووسط هذا وذاك تأتي الزهراء؛ لتحكم فاس وتدرأ ما فعله الرجال من زحف إلى السلطة وفتن وقتل بالمجتمع، وتولت الزهراء الوطاسية الحكم لمدة عامٍ واحدٍ فقط، نهضت خلالها بالبلاد لتترك بعدها الحكم.»

البطاقة الزرقاء:

«السيدة الحرة وتلقب بأميرة الجهاد البحري، هي واحدةٌ من أهم الزعيمات اللواتي عرفهن المغرب عبر تاريخه، تميزت بالعلم الغزير والذكاء الحاد والحنكة السياسية قبل و أثناء حكمها مدينة تطوان المغربية.»

البطاقة البنفسجية:

«يطو الدكالية، وصفت بالمغربية الحرة المقاومة لمحاربتها البرتغال بشراسة وفطنة، فضلًا عن كونها السبب الرئيسي في مقتل قبطان برتغالي أيام استعمار البرتغال للمغرب.»

البطاقة السوداء:

«سحابة الرحمانية أو مسعودة الوزكيتية، لعبت دورًا سياسيًا بالغ الأثر في فترةٍ حرجةٍ من تاريخ المغرب، وقد اشتهرت بذكائها ومعرفتها الواسعة بدهاليز القصور وخريطة المغرب والعالم، لتكون أساس ازدهار الدولة السعدية.»

البطاقة الوردية:

«زينب الأميرة الموحدية الأندلسية والتي تم أسرها من طرف قراصنة صقلية، عرفت برأيها السديد، صفاتها الفاضلة، وفلسفتها الحكيمة؛ لتكون بذلك النموذج النسوي المغربي فكرًا وسيرةً ومذهبًا ونزوعًا.»

البطاقة الرمادية:

«خناثة الوزيرة والمستشارة لزوجها السلطان، جمالها لم يثنها عن تكبد مشقة نيل العلم، وتعميق مداركها العلمية والفقهية، ومع ذلك ارتمت في غمار السياسة وتدرجت فيها حتى أصبحت أول وزيرةٍ مغربية.»

دهشت لهذه المعلومات القيمة عن تاريخ أشهر النساء المناضلات بالمغرب في تلك العصور القديمة، لكن دهشتها اتسعت عندما اتضحت ملامح الشخصيات النسائية اللواتي ذكرن في البطاقات، ترقرقت عيونها بالدموع، وقالت وهي غير مصدقةٍ تمامًا بما حصل معها قبل قليل:

-أيعقل.. أن يكون هذا هو بلدي المغرب؟ وهذا تاريخ المغربيات اللواتي سطرن ملاحم عظيمة، بطولاتٍ فذة، وتبوأن المراتب العالية فقهيًا، دينيًا، ثقافيًا، سياسيًا، وعسكريًا!

أومأ البروفيسور قائلًا:

-هذا فقط ذرةٌ صغيرةٌ من الكون يا ترتيل.

أضاف آلان:

-تمَّت إعادة تشكيل الشيفرة، وحل الأحجية التي عجز جدك ووالدك عن حلها بروفيسورويلسون، سيتم تخزين البطاقات والمعلومات بتشفيرٍ جديدٍ دون المساس به وإجراء تعديلاتٍ للوحة.

صمت آلان قليلًا وهو يحلل المشاعر الإنسانية في هذا الموقف الشاعري، لكنه سرعان ما أضاف:

-قد أعادت ترتيل التاريخ والمجد لبلدٍ عربي إفريقي، ظنناه لن يعود يومًا وإن تمكَّن البشر من السفر عبر الزمن.

ربت البروفيسور على كتفه؛ لتقول ترتيل والدموع لا تزال تشق وجنتيها:

-لـن يعـرف أحـدٌ عظمـة التُّراث التـاريخي والثقـافي والـديني والمعماري لما كانت عليه بلـدانـنا العربيـة سـابقًا، وحـده المتعطش؛ لرؤيـة مـزيج الحضـارات والثقافـات والبلـدان مـن سـيبلغه ذاك الشعور بالانتماء والأصول... إنَّه الحنين للوطن.

تساءل البروفيسور باندهاش:

-الوطن؟!

تنهدت وأجابته:

-نعم يا بروفيسورويلسون، الـوطن لـيس ترابًا وجغرافيةً كما ظنناه إنه قيمة الحب والفداء، الكرامة والإباء، والشهامة والإيمان، حـال انتمـائي للمغـرب كمغتربٍ عـن وطنـه ولا سـبيل للرجـوع إليـه؛ بإيمانٍ خالصٍ وتضحيةِ عاشقٍ يثبت الوطن على المبدأ، ولو بتشويه التـاريخ، تـدنيس الثقافـات، أو تكبيـل القلـوب عـن الشـعور بالجـذور التليدة لوطنٍ مثل المغرب الأبي.

(3)

بوحُ أسيرة الحُب

مقدمة

بين قلوب لا تشتكي وحروبٍ لا تنتهي وطن يناشد لوحات الدمار، تناثر الرماد، وأريج الدماء لشهداء بات يبوح منهم مسك الجنة ورياحينها؛ ما عادت فلسطين تصرخ، فوحدها زنازن الاحتلال تدوي بالأسرى فأحلامهم قد استُشهِدت بمنتصف الثَّورة.

بأنامل رقيقةٍ ومُرتعشة كانت تُلامس قطرات المطر الباردة بينما عبست السَّماء بملامح جوٍ غائمٍ خفيف، توالت حبَّات اللُّؤلؤ بالتَّساقط وكأنَّها ترسم خطوتها التَّالية إلى أن انقشع الغمام الرمادي كاشفًا عن لوحةٍ بهيَّةٍ ذات جمالٍ طبيعي.

أسدلت ستار النّافذة بحزن وتنهَّدت بعمق، واستلقت على فراشها البالي وهي تُضمِّد جراحها، بل تُبلسِم تجاويف فؤادها الذي أرداها قمرًا منشقًا من فرط الهُموم، وردةً ذابلةً تُسقى بدموع الشَّوق والحنين، وزيتونةً ضائعةً بين الجنان تبحث بين عبق ذكرياتها عن نسيانٍ لعلَّه يأبى الانقياد لطغيان الاحتلال.

أي جراحٍ هذه؟ وأي نسيانٍ يمتنعُ عن مُفارقة الذَّاكرة؟ بالكاد قد تجاوزت وفاة والدها الذي لم تنعم قط بحضنه الأبوي، تناست استشهاد شقيقيها الوحيدين منذ ثلاث سنوات في قصف جوي بمدينة غزة، وبمشقةٍ بليغة أغفلت عن تفاصيل والدتها الرَّاحلة منذ أشهرٍ قليلة بعد معاناتها من مرض السرطان؛ عاد البيت مكتسحًا بأطيافهم وذكراهم لا تُفارق مرأى عينيها، فتدمعُ مقلتاها تارةً وتنزوي تارةً أخرى عند كل ذكرى معهم، حتى أمست وحيدة في الحياة تحارب ما علق بالذاكرة فتنشغل بعيدًا لتتناسى أوجاعها بين سجَّادةٍ ومصحفٍ ومسبحةٍ لُؤلؤية.

كانت بمُنتصف عقدها الثَّالث؛ شابةٌ صغيرةٌ بملامح عجوزٍ أثقل كاهلها غبار الزَّمن وصفعاتُ الحياة، تتدثَّر بخمارها الأسود الذي يعكس هدوءها ورزانتها وفي الآن ذاته عُمق حزنها المكلوم، بينما تعاني بصمتٍ من الوحدة والفراغ القاتل، يومها روتينٌ مُتكرِّرٌ تذهب لتدرس الصُّفوف الابتدائية كمعلمة قرآن، فتجد بعضًا من سلوتها في آيات الله المُحكمات وفي براءة الصِّغار المقبلين على الحفظ، تتأمل تقاسيم وجوههم بتلك البراءة التي لا تزال في أوج عنفوانها، وتسبح بمخيلتها لو كان لديها إخوة أصغر منها أو طفل في مثل أعمارهم، لتنكب على سقيه بالحب والحنان التي حُرمت منه... كانت تُحيِّي الأطفال والمعلِّمات وحتَّى الآباء وجيران الحي ببشاشة، تلقي عليهم ابتسامات خجولة وهي تشد بخمارها كفراشة خفيفة تحلق بسعادة في حقل بديع من الزهور، لكن وحدهُ -سبحانه- المُطَّلع لما يخفيه صدرها.

كانت قد انتهت من أداء صلاة المغرب وأعدَّت مائدة الإفطار، جلست في البهو وكان التِّلفاز يعرض برنامجًا وثائقيًا، حملت جهاز التَّحكم لتبحث عن برنامجٍ آخر؛ لتوقفها أخبار المساء، كانت تأكل في صمت وهي تُشاهد نشراتٍ إخباريَّةٍ تتحدَّث عن الصِّراعات والانتفاضات الفلسطينيَّة، عن أعداد المُصابين والقتلى في كلِّ مُقاومة، عن المُشرَّدين واليتامى إثر كلِّ قصف، عن أراضٍ نُجِّست بخُطى الاحتلال، عن قرىً شهدت التحام قاطنيها وتعاضدهم في المأكل

والمشرب والمأوى بعد التِّرحال، وعن مدنٍ لم تكتسحها سوى براثنُ الفساد والظُّلمة والاستعباد؛ ظلَّت تتابع هذه الأخبار عن الأحوال المتدهورة لفلسطين إلى أن سمعت المذيع يقول:

«...ووفق معطيات نادي الأسير الفلسطيني، يوجد في السُّجون الإسرائيلية ثلاثٌ وعشرون أسيرًا تمَّ اعتُقِلوا قبل اتفاق أوسلو سنة 1993، ونحو أربعمائةٍ آخرون أمضوا أكثر من عشرين عامًا في الأسر، وحاليا يتم النقاش لفك بعض الأسرى بعد اكتظاظ هذه السُّجون الإسرائيلية... فاللّٰهُمَّ عجِّل بالفرج لكلِّ أسير، اللّٰهُمَّ سدِّد رميهم وثبِّتهم على الحقِّ والإسلام.»

لم تشعر بتلك الدَّمعة التي خانتها عند تمتمتها بكلمة **"آمين"**، ولا بفؤادها الذي انتفض بحُرقة وهي تردِّدُ في نفسها:

-عشرٌ مضت وعشرٌ باقياتٌ...

شعرت ببصيص نورٍ فورَ سماعها لهذه الكلمات، مرَّت بضع دقائق وسمعت طرقاتٍ خفيفةٍ على الباب ومناديًا يقول:

-أماني.. افتحي الباب، هذه أنا خالتك فاطم.

ارتدت أسدال الصلاة بسرعة وفتحت للخالة الباب، استقبلتها ببشاشة لتمد لها صحنًا من **"الكنافة"** فقالت لها أماني:

-أهلًا بك يا خالتي، لما كلُّ هذا العناء؟

مسحت الخالة فاطم على وجنتي أماني اللَّتين كانتا مُحمرَّتين من البكاء، وقالت:

-أعلم أنك تصومين كل اثنين وخميس؛ لذا قد أعددت بعضًا منها لك، سمعنا الأخبارعن الإفراج قريبًا، وإن شاء الله سيتمُّ تحرير عمروباقي الأسرى.

سرعان ما تجمعت الدُّموع في مُقلتيها لتردف الخالة بابتسامة:

-لا يا أماني، إن شاء الله سيكون الفرج عمَّا قريب قد صبرت على الابتلاء، وسيكون العوض جبرًا عظيمًا يليق بقلبيكما يا حبيبتي.

مسحت دمعتها وأجابتها بابتسامةٍ خافتة:

-إن شاء الله.

جال بينهما حديث سريع ثم عادت؛ لتكمل طعامها وفي قلبها حنينٌ قديم، لملمت نفسها بعد أذان العشاء فأمست تصلي وتدعو ربها بدمعاتٍ مثقلة؛ جلست بين سجادتها تقرأ الأذكار لكنها لمحت شيئًا في رف مكتبتها الصغيرة، قامت بخطواتٍ مثقلةٍ؛ لتجد أحد مذكراتها القديمة والمندسَّة بين الرفوف العليا لتلك الخزانة، فتحته وبدأت

بالسعال جراء ذرات الغبار الخفيفة التي تطايرت عند فتحها لتلك المذكرات، ابتسمت وعادت إلى سجادتها تقرأ:

«وها هي الأرض قد تزينت وارتدت ثوبها الأخضر المزركش الجميل، غيومٌ أضحيت أراها وهي تعانق بعضها بلؤلؤ بياضها المزدان بين سماءٍ بهيةٍ وشمسٍ خجولة، فالربيع قد استفاق من سباته، والكل مبتهجٌ بالولادة الجديدة.

من ثرى ندي تفتحت نبتةٌ مخضرةٌ بحنان الأرض المباركة، بقطيرات الندى الصافية، وببلسم الشمس الذهبية حتى كبرت هذه النبتة، وعادت مثمرَّة البراعم ومحملة الأوراق، نمت بين تغيرات المناخ وتقلبات الفصول، وعانت مرارة فقد أبنائها الأوراق وأحفادها الثمار، قد كابدت الحياة لرعايتهم، لكن الزمان قد أردى أحلامها الناضجة مكسورة، فذبلت و انقضى الأجل بعدما كان الركض في النماء والبقاء.

هذا هو حالنا نحن الآدميون من المهد إلى اللحد ونحن نتعرج بين عقبات الدنيا، ولا سبيل لسبر أغوار الأحلام والأماني إن لم نحارب لأجلها؛ ترتخي المفاصل ويهدأ القدر الذي نضج بالتفكير العميق والتخطيط الوفير، نضع الرؤوس بهدوءٍ على الوسادة بعد مُجابهة يومٍ ثقيلٍ؛ فنود حينئذٍ لو أن الحياة كانت أخف من هذا

الثقل كله، ومن حملٍ يتربص كل مولودٍ جديد، إنه سفرٌ بين المشقة والتعب لركضٍ سرمدي نحو المجهول، لم يعد هناك ما يغري في الحياة بقدر رفع مستوى التطلعات لغدٍ مزهر، لعل بالحياة ما يؤنس الروح بعد فقد بريقها القديم، نتوقف عن نسج الخيالات حينًا، وعن التفكير في الأمنيات أحيانًا أخرى، ولربما ما عدنا كما كنا، فقد توقفنا عن طرق باب الشغف الطفولي الذي يتملك الشخص ويقوده نحو تجاربه الأولى في الحياة.»

تبسمتْ أماني وأطلقت بعدها تنهيدةً وهي تنعش الذاكرة بأيام طفولتها؛ جو أسري يكاد لا يخلو من الحب والسعادة خاصة إذا خرجت مع إخوتها إلى أرض التين والزيتون، تلك الأرض الطيبة المباركة قد كانت مصدر الخير والرزق الحلال لعقودٍ توالت منذ أول فسيلةٍ غرسها أجداد أجدادها، والآن أمست لكيد الأعداء بعد مصادرتها عنوةً وبالقوة، وأيام الخوالي التي اعتادت خلالها تدوين المذكرات وكتابة الخواطر؛ لتفريغ ما يخالج فؤادها الرقيق، لكن مع كم الهموم وازدحام الآلام، أغفلت عن عادتها الجميلة تلك؛ لتهتم أكثر بالتلاوة والتجويد.

أشرقت شمس صباحٍ جديد، وكانت حينئذٍ أماني تحيي الأطفال بابتسامةٍ وآباؤهم في قاعة الاجتماعات، دلفت إليهم بعدما أرشدت الأطفال لمكانٍ مخصصٍ لهم بينما آباؤهم في الجهة المقابلة، تقدمت

مديرة المدرسة بالتحية والاستقبال واصطفت بعض المعلمات وبينهم أماني؛ لبدء الاجتماع الذي يقام كل منتصف سنة دراسية؛ لمتابعة مستوى الأطفال وتعلمهم، بدأت كل معلمة بفتح نقاشاتٍ متعددةٍ مع الآباء بحضور أبنائهم، وتلى ذلك نقاش أماني التي قالت:

-لابد أن يلقى الأطفال اهتمامًا كبيرًا من قبلكم كأهل، ومن قبلنا كمعلماتٍ وأطر، كذلك لابد من تقديم أفضل وسائل التعليم لهم حتى ينشأ في المجتمع جيلٌ صالحٌ بإمكانه النهوض بالأمة ومستقبلها، وهناك كثير من المراكز التي تخصصت في هذا الأمر إلى جانب مدارس تحفيظ القرآن الكريم، كل هذا ينصب لحماية الأطفال ومنحهم كل حقوقهم لضمان مستقبلٍ مشرقٍ لهم.

ابتسمت لهم برقة وأردفت:

-إن شباب المستقبل هم أطفال اليوم؛ لذلك فإن كل ما نزرعه في أطفالنا اليوم سوف نحصده مستقبلًا، وأهم مسؤولية يجب القيام بها هو الاهتمام بإنشاء جيلٍ يتمكن من التعمير والإصلاح مما خلفته آثار هذه الحروب، وبصمات الصدمات النفسية التي يتلقاها الطفل حين كل حادثٍ أليمٍ يصيبه جراء قصف بيته، استشهاد أحدٍ من أسرته، تعرضه لإصابات إثر الانتفاضات وغيرها... والنهوض بمستقبل الأمة يبدأ بإعداد الطفل أولًا، فيجب عليه أن

يعتاد منذ صغره على العمل الجاد وتوعيته ثقافيًا وفكريًا والأهم دينيًا، كل هذه الأشياء تمكننا من إنشاء جيلٍ قوي من الشباب في المستقبل، جيلٌ يمكنه البناء والتطوير.

ومنه لابد أن تهتموا بالبيئة المحيطة بأطفالكم حتى تجدوهم أفرادًا صالحين في المجتمع عندما يصبحون شبابًا، و أبطالًا عازمين مسلحين بالوطنية والإيمان؛ لتغييرحال الأمة الفلسطينية إلى الأفضل بإذن الله.

تلى بعد مداخلة أماني تصفيقاتٌ حارة، كلمات تنشد بالشكر والتقدير لجهودها، والأهم دعواتٌ صالحةٌ لها ولوالديها على هذه التربية التي أسهمت بإنبات وردةٍ عطرةٍ بالحب والقيم والوطنية، والتي تغرسها في البراعم الصغيرة والزهور اليانعة في بداية مشوارها.

مرَّت ثلاثة أشهرٍ وقلب أماني معلَّقٌ بالتَّهجد والدُّعاء وقد زاد اعتكافها مع أواخر شهر رمضان المبارك، وبينما كانت تُعدُّ طعام السَّحور فاجأها طرقُ الباب قُبيل الفجر بنصف ساعةٍ مع همهمةٍ خارجيةٍ قد زادت من حدَّة قلقها وخوفها، وضعت حجابًا أسودًا طويلًا فوق أسدال الصلاة وفتحت الباب.

ارتعدت أوصالها عند التقاء عيونها المتعبة بعينيه الزرقاويتين الجاحظتين، ولم تستأذن خاصَّتها؛ لتسبل بدمعاتٍ هيَّجت أحاسيسها

المدفونة من جديد، كان الواقف أمامها شابّ في منتصف الثَّلاثينات من عمره، كان شاحبًا وضعيف البنية قليلًا عما كان عليه من قبل فضلًا عن شعره ولحيته الكثيفتين، ناظرت ملامحهُ وهي تتفحَّص آثار الزَّمن التي كسته، طيَّات الألم والضعف التي احتلَّته، والتَّعب الذي سرعان ما خبى أمام حبٍ مُستكين أحاط قلبيهما وأثلجه بمودَّةٍ ورحمةٍ لم تكتمل بعد؛ فتح يده إليها والجمع وراءهُما منتظرٌ الحدث، لم تشعر بالحب أو بالحضن الدَّافئ إلَّا بعدما ارتمت في أحضانه وهي تشهق من كثرة البكاء والانفعال، بينما الشَّوق عاد سرابًا بعد دهرٍ عصيب.

مرَّت مدَّةٌ طويلةٌ من الاستيعاب حتى جدت نفسها تبتسم وتضحك وسط دمعاتها والجيران يهنّؤونها بعودة عمر؛ زوجها الذي أُسر في ليلة زواجهم إثر مشاركته في أحد الانتفاضات قبل يومين من تلك الليلة، فرحةٌ لم تكتمل وزفافٌ لم يستمر بعد اقتحام جنود الاحتلال لجمع المُحتفلين بحبيبين دُثِّرا بالعفَّة والحلال؛ ليتم أسرُ العريس وخمسةٌ من رفاقه كانوا مُشاركين بتلك الانتفاضة، عذرًا فهي ليست بالانتفاضة، بل هي جريمةُ حبٍّ ووطنيةٌ وشهادةٌ تُخلِّدها فلسطين يوميًا، يتلو اقتحامهم للبيوت والمساجد وحتَّى الأفراح آلامٌ جسيمةٌ وصيحاتٌ مستكينةٌ تطويها الجدران المهترئة، وتحتويها أرضٌ لا تشبع من دماء الشُّهداء.

فما وزرُ قلوبٍ تُدافع عن حبّها بغريزةٍ قد أحياها الخالق فيها؟ تحت أيّ وثيقةٍ أو بندٍ تُعتبر الوطنيَّة ذنبًا عظيمًا؟ ومنذ متى كان الشُّعورُ بالأمن والسَّلام مُحرَّمٌ على أبناء وطنٍ هم في تُرابه؟

لم تستطع أن تغمض جفنيها ولا أن تتذَّكر السَّحور وهي حبيسةُ مُكامعة نصف فؤادها الذي أحياها من جديد، جلست بجانبه تتأمَّل ملامحه التي كادت أن تنساها لكن للقطعة القابعة بأيسر صدرها رأيٌ ثان، حرَّرت دمعاتها مرَّة أخرى وهي تصلي وراءهُ بصوته المُهتز بالتِّلاوة، لتلقى القلوب سبيلها بعد تخبُّطٍ وحرمانٍ وحبٍّ كان مقيدًا بأغلال الشَّوق والفراق، كانت تُحرِّك شفتيها بكلمة **"آمين"** لدعواته في نُصرة فلسطين، ودوام البركة عليهما بعد جفافٍ دام لسنوات.

وما لبثت الأشهر تجري حتَّى جاءهما الرَّدُّ السَّماويُّ والبُشرى المُباركة بخبر قدوم مولودهما الأوَّل، بل ثمرَّة حبّهما بعد عشرٍ عجاف، فقد كان الشِّفاء التَّام للقلبين الجريحين بعد فراق الأهل والأصحاب وببعدٍ اغتصب عقدًا منهما، ولولا رحمة الله بهما لأتمَّ عقدين تحت الحكم الأوَّل قبل الإفراج، وربُّ الخير لا يأتي إلا بالخير وإن كان الابتلاء فقدًا للأحباب، مرضًا مُتعب الأجسام، وقدرًا مكتوب الأجل.

كانت أماني تذرف عبراتها كلَّما جالسها عمر؛ ليحكي سُنونه التي مضت بسجون الاحتلال، أو تشقُّ البسمة محياها كلَّما وضع يده على

بطنها ليتحسَّس نبض الجنين وتحرُّكاته، فصارت عادةً يوميَّةً لكليهما حتَّى إذا حلَّ شهرها الخامس وجدت نفسها تسأله بحب:

-عمر.. ما الاسم الذي سنختاره لطفلنا؟

كان يستعد للذهاب إلى العمل بأحد المحلَّات التِّجارية؛ فأوقفه سؤال أماني الذي كان مُباغتًا، ولم يفكر فيه يومًا حتى بعد معرفته بحمل أماني أو جنس المولود، جلس بجانبها؛ ليضمَّ كفَّيها بين يديه مقبلًا إياهما قائلًا:

-قد اختارت فلسطين بالفعل اسمًا لطفلنا، فلِمَ نسميه نحن؟

تأمَّلته باستغراب ليردف مبتسمًا:

-طفلنا هو أُمنية فلسطين كما الحال مع أطفال هذه الأرض، نحن لا نختار أسماء أبناءنا يا أماني لأنَّهم بالفعل هم أحلامٌ تمشي على هذه الأرض المقدسية، وعُهودٌ مكتوبةٌ لفلسطين بالنُّصرة والتَّحرير، فهذا مجد وتلك حنين، هذا سيف وتلك قدس، هذا صلاح وتلك يافا، هذا ليث وحسام وخليل، وتلك بيسان وتحرير وثورة... أمَّا الباقي فهم لآلئ تنير دروب الوطنيَّة والشَّهادة الفلسطينيَّة.

دمعت عينها لتجيبه:

-إذًا ليكن اسم ابننا هو وطن، حيث منبع حبِّنا الأوَّل والأخير، حيث الجهاد والرباط في سبيله جنة يسعى إليها كل فلسطيني، وحيث يَدُ السّماء تلَقّفُ منّا خيرَ الزّهور فنرضى، ونرضى، ثم نرضى بما كتبه الله لنا.

مرَّت سنةٌ ونصف لتجد أماني نفسها تُداعب صغيرها وطن وهي تتأمل ملامحه البشوشة وضحكاته الصَّغيرة، أمالت ابتسامتها وبدأت تُدندن له ليبدأ في التَّلعثم:

-ب.. با.. با.. با...

ابتسمت لتجد خلفها عمر الذي حمل الطفل قائلًا بسعادة:

-ها أنا ذا يا صغيري، والدك هنا يا شبلي الصغير.. هيَّا ردِّد مجدَّدا "بابا".

اتَّسعت ابتسامة الصغير؛ ليشد وجنتي والده مردِّدا وراءه بكلمة **"بابا"**، وهذا ما أضاف البهجة والسُّرور على البيت الصَّغير...

كبُر الطِّفل وكبرت معه الأحلام الفلسطينيّة، وها هي أماني تودِّعه وزوجها بعد أن غدا الطِّفل شابًا مناضلًا والزَّوج غُصنًا بالحبِّ مسقيًا، ثمَّ روت ضعفها بالقيام والدُّعاء في ليلةٍ باردة سبقت إعدامها، تلتها لحظاتُ حبٍّ وابتسامة زيَّنت ثغرها؛ ليراها عمر ووطن ضاحكةً

مُستبشرة، لم تكن جريمتها الوطنيَّة، بل بطولتها جُسِّدت بتشبُّثها بالنِّقاب الأسود ورفضها لخلعه أمام جنود الاحتلال عند حاجز تفتيش؛ ليتمَّ أسرها باعتبارها إرهابية...

كانت مكومةً كالطفل الصغير في أحد الزوايا المظلمة لتلك الزنزانة المتعفنة بالرطوبة، تسبح وتناجي بهمسات كادت أن تكون موؤودة بتعبها وقلة أكلها، أسندت رأسها على الحائط هنيهةً؛ لتسمع مناداة سجينةٍ بجانبها وهي تسألها بصوت مبحوح:

-يا أختي، هل سنكون من الشهداء غدًا؟ هل حقًا سنخلد بجنةٍ عرضها السماوات والأرض كما وعدنا الحق بعد زهق أرواحنا؟

تبسمت أماني بإرهاقٍ وهي تعي تمامًا أن السائلة خائفةٌ من الموت كحالها هي، والفرق أن أماني بصدرها ربوعٌ مرويةٌ بالإيمان واليقين بالله، سالت دمعةٌ على وجنتها، وأجابت الفتاة التي تعرفت عليها منذ فترة سجنها وكانت تصغرها بخمسة عشر سنة:

-تمني الشهادة من أعظم الأمنيات بهذه الحياة، فهي ليست يأسًا من طغيان الاحتلال، قنطًا من رحمة الله بجنة موعودة، أو هتكًا لروحٍ مفعمة الإيمان قد أسلمت لبارئها حتى تحظى بشوقٍ لنسيم الجنة، وصدقيني يا حبيبتي إن لَم نمت شُهداءً سواءٌ اليوم أو غدًا فإننا سنعيش طويلًا إلى درجة سَيُبلى فيها الكفن قبل أن

نستعمله، هؤلاء يرهبونا بالموت ونسوا أن الموت هو أقصى أمانينا لرؤية وجه الله العظيم؛ لذا علينا أن نكون عشاق الشهادة.

سمعت أماني عمق الغصة التي بقلبها وهي تبكي فسألتها:

-ما اسمك يا جميلة؟

-جمانة.. اسمي جمانة.

-اسمك جميل.. هل تعلمين معناه يا جمانة؟

همهمت جمانة بكلمة لا فأجابتها أماني بابتسام وسط غمامات الإرهاق والحزن على حالها:

-جمانة الواحدة منها هو الجُمَان أي اللؤلؤ الأبيض والفرس الصغير، وفي اسمي -أماني- دلالةٌ واضحةٌ عن جمع أمنيةٍ يبتغيها الإنسان.

صمتت برهةً وأطلقت تنهيدةً حارَّةً لتردف:

-لما لا نتذكر كل التفاصيل بقلوبنا يا جمانة؟

سألتها بدهشة:

-كلها؟!

-نعم كلها وبالضبط أجملها و أقربها للفؤاد، وأظن أنه وقت ملائم قبيل بزوغ الفجر حتى يتسنى لنا الصلاة في الوقت عوض النوم وإغفالها، لكن لا تنسي أذكارك والشهادة في كل حين.

-إن شاء الله سأفعل...

-سأحدثك عن أول مرَّة التقيت زوجي عند الرؤية الشرعية، كان قد أخبرني أنه يُسحَر بالعيون البنية التي تذكرنه بالقهوة وبالثرى الندي في لمعتها، قلت في نفسي غريبٌ أمر هذا الرجل نحن في رؤيةٍ شرعيةٍ للتعارف وليس للتغزل، حينئذٍ هممت بالمغادرة لكن شيءٌ ما استوقف فؤادي متسائلًا باستغراب: وماذا عن اللون الأزرق كزرقة عينيه التي لم أنتبه لهما إلا بعد عقد القرآن؟ حينئذٍ أجابني وكأنه قد قرأ أفكاري بأن في زرقة سجادتي التي أطوف بها دائمًا؛ لأداء صلاة التراويح لؤلؤٌ برَّاق كمحيطٍ صاف، فسألته بشجاعة وماذا عن الأخضر؟ أجابني بلطف: هو زيتونٌ تحصدينه مع فؤادي، فلا أرض الأجداد قد أسلمت ولا الفؤاد قد شبع من اقتطافه بين أناملك، تلعثمت حينئذٍ وسألت ساخرةً: وبالنسبة للأحمر؟ تنهد حينئذٍ بعمق، وكأنه روى رئتيه بما تبقى من الأوكسجين الذي انقطع بداخلي، الأحمر يجري بشرايين كل فلسطيني فحين الشهادة يتسرب؛ ليعلن عن روح رحلت من هذه الدنيا؛ لتحظى بجنة الفردوس.

اخترقت كلماته في قلبي فسألته مترددة:

-حقيقةً هذه رؤيةٌ شرعيةٌ حتى نتبين مدى التوافق بيننا إن كان خيرًا أم لا، لكنك قد أخذت منحى آخر بحديثك هذا.. فهل لي أن أعرف سبب ذلك؟

تبسم بخفة وقال:

-أنت من بين أردده في دعائي وفي سجودي بين يدي رب العالمين، بقلبي يقينٌ بأنك هي الزوجة الصالحة والسند لهذا الفؤاد، و أتمنى أن يكون أطفالنا حافظين لكتاب الله مثلنا، وأن يكونوا بني الأعين.

هممت بابتسامةٍ خجولةٍ كاتمةً ضحكاتي؛ فأخبرته بأنني لن أستطيع، فالجينات ليس باستطاعتي التحكم فيها كما أن والديه رحمهما الله وبعض أفراد أسرته عيونهم زرقاء، إضافةً إليه هو بالذات، فكيف يمكنني إنجاب أطفال ذوو عيونٍ بنية.

لم أكن أعلم حينئذٍ مراده بهذه العيون إلى أن قال:

-صدقيني يا أماني ستكون عيون أطفالنا بإذن الله وقدرته بنية؛ فالعيون البينة مثل القهوة، مثل الشجرة، مثل تراب الجنة، ومثل فلسطين حيث لا يوجد الخَوف عَلى أرضٍ فِيهَا الأرْوَاح المؤمنة

تُقَاوِم، حيث جنين من القتال لا تستريح، حيث القدس تئم الشهداء وتعبق يمسك دمائهم العظيم، حيث بغزة وحي البسالة يجوب كل زقاق وبيت مستكين، حيث بيافا ونابلس سحرٌ يناشد القلوب للغوص بين الثرى الناعم والمسقي للسهول، وعندما تعطش فلسطّين تروى بمن أحبَّ البِلاد وتعمَّقوا في حُبها إلى أن يصير متيم الهوى للانتفاض البعيد.

تعالت شهقةٌ من أماني، وأردفت والدموع قد أثقلت وجنتيها:

-بعدها بأسابيع قليلةٍ تم عقد القران، وحين الزفاف أُسِر زوجي مع بعض الشباب، مرت سنواتٌ وتم الإفراج عنه قبل موعد الحكم بعشر سنوات وإنها لمعجزة، لكن قد أتت البشرى بعدما علمت بأنني حامل، وفي كل مرَّة كان يقول لي زوجي بأن طفلنا سيكون ذو عيون بنية، كنت أضحك حينئذٍ إلى أن ازداد المولود بعيونٍ بنيةٍ بالفعل، قد ملأ حينئذٍ دنيانا حبورًا بعد غمٍ وكدرٍ بفراقٍ عقيم، حتى كبرت سنابل الخير والبركات بقدومه في بيتنا الصغير.

تبسمت جمانة وقالت لأماني:

-طوبى لَمن أحبّ فلسطين كل يوم، وكأنهُ آخر يومٍ لَه في حُبها، وأطياف من فارقونا ترَفرف فِي خواطِرِنا طُوبىَ لهم بهجرةٍ إلى دِيَارِ الخُلود، فلسطين باقِية على العهد وإن تآكل بالطغيان والاحتلال،

الروح سارية وإن دنا دوي الرصاص وريح القنابل، والفؤاد حيٌ بنبض الإيمان والسلام وإن كان الجواب سيل الدماء وإزهاق أرواح الأبرياء... لنا غدًا موعد مع الله يا أماني.

ثمَّ تمَّ إعدامهما مع مجموعة من المساجين بعد سنتين من الحكم والمكوث بزنان الاحتلال الإسرائيلي.

باغتت السنون نسيمها على وطن؛ ليجد نفسه بين مخيمات المنكوبين بفلسطين، كان يسرع في تقديم الإسعافات الأولية وفحص المرضى رفقة القافلة الطبية التي انضم إليها مؤخرًا بكونه طبيب مختص في الطوارئ، وقد كانت سلوته تضميد الجراح ومعالجة الندوب العميقة، والتي كانت في الحقيقة بلسم جبرٍ ومعافاة لفؤاده... وبالفعل كانت جراحًا؛ لفلسطين وندوبًا من الطغاة على أرضها المستكينة.

جلس وطن بعيدًا عن التجمعات وأخرج من جيب معطفه الأبيض مذكرةً صغيرة، فتح أول صفحة؛ ليجد صورة له ولوالديه عندما كان طفلًا رضيعًا، كان يتأمل ملامح الطفولة وارتسامات السعادة على تلك الأسرة الصغيرة والتي سرعان ما تفككت بعد وفاتهما معًا؛ استشهدت والدته بعد إعدامها تم توفي والده قهرًا عليها بعد أشهرٍ قليلة، والآن بات وحيدًا ينتقل من مخيمٍ لآخر بين القوافل

الطبية؛ ليحيي قلوبًا ويشفي جروحًا إثر القصف والانتفاضات، خانته دمعةٌ بين شهامةٍ ورجولةٍ واضحةٍ بين معالم وجهه المشرق؛ ليقول في أسى:

-قد هان علي فراقكما معًا، انظرا كيف حل بقلبي صدوعٌ عميقةٌ بين وحدتي وحزني الدفين، يا ترى كيف أدعوا بالرحمة والمغفرة دون أن أرتمي بين وسادتي كما المعتاد، أو ألقي بنفسي بين السجود.

تنهد بعمق؛ لتحط على كتفه يد صغيرة، استدار ليلمح فتاةً صغيرةً في أواخر عقدها الأول، كانت تحمل بيدها نصف لوحٌ من الشوكولاتة، وباليد الثانية تعانق دميتها الصغيرة التي كانت على شكل عروس، ابتسم في رقةٍ بعدما مسح دمعته وقال لها:

-مرحبًا يا صغيرة، ما اسمك؟

-قدس.. اسمي قدس.

-جميلة أنت كالقدس تمامًا، ما الذي تفعلينه هنا؟ هل معك أحد من أسرتك؟

أشارت برأسها إيجابًا بعدما كستها حمرَّة خجلٍ من إطرائه لها، جلست بجانبه ومدت له لوحة الشوكولاتة، أخذ قطعة صغيرةً شاكرًا إياها فقالت له:

-هل تشتاق لهم أيضًا؟

تأمل ملامحها مليًا، وأجاب وهو ينظر ناحية السماء التي بدأت تنسدل بطبقاتٍ مخمليةٍ لصورةٍ بديعةٍ للغروب:

-نعم أشتاق لهما كثيرًا.

-و أنا أيضًا أشتاق لأبي وأمي وأختي الصغيرة.

نظر إليها مصدومًا وقال:

-كيف ذلك؟.. هل هناك أحد متبقي من أسرتك؟

أشارت رأسها بنعم وقالت:

-لدي جدي، لكنه مريض ومصاب بكسور بعدما قُصف بيتنا.

رق وطن لحالها، وبدأ يمسح بيديه على رأسها بهدوء لتردف:

-لا تقلق فهم الآن بالجنة ينظرون إلينا، قد أخبرني جدي أنهم من الشهداء والشهداء منزلتهم الجنة... و أنت أيضًا والداك بالجنة أليس كذلك؟

أومأ لها بابتسامةٍ حانية، انشغلت الفتاة بقضم قطع الشوكولاتة واللعب بدميتها بينما فتح وطن مذكرات والدته نحو الصفحة الأخيرة وبدأ يقرأ بين نفسه:

«ما قبل اللقاء:

تعددت أسئلتي والجَوابُ واحد.. كان هناك صمتٌ مميتٌ يفطر فؤادي بين هذه الجدران الكئيبة والقضبان العارية، لم يُفلت صريح أوجاعي المكتومة من بينِ جفنَيَّ فلعله صدى متبقي من ماضٍ قد هُمِّش بفراق أحبتي، وكأنني مَن سَجنتهُ حتى أشفقَ علي فظن أن خُروجهُ سيُحدِثُ صدعًا فِي ذاكَ الجلمود، ولكن بحقيقة الأمر قد عادَ هامِسًا لِي باعتذار.

أردتُ حضنًا يُؤوِيني ولم يُعانقني سوى دعواتي ومناجاتي لربي، تساءلت حينئذٍ لِمَ لمْ يتصدع قلبي حتّى بعد أن استقرت مشاعرِي بين فضفضة قيامي؟ كنت أعاتبني بعِتاب الأبكم المهلكِ للذّات، ومعَ هذا أرغبُ أن أستمر فيهِ فأدعمه بنَسجٍ نشيجٍ مَكبوتٍ، ما هذا بعذاب و إنّما نَدفٌ لِذاتِي، عسَاني أودُّ السُّقوط جريحة للنجاح

بإختبارِرحمته سبحانه، ولطالما كان هوَ الحلُّ الوحيدُ لِخلاصِي من ضجيج الأفكار...

عجبًا، قد هَمست لِيَ المشاعرُ الجريحة بأن أُحدِّث عما بداخلي، أشتكي وجعًا لِوَجعٍ، أبكي قهرًا لطغيان، ثم أنحني لأوراقي الذابلة علَّ وجداني يصحُو في يومٍ قريبٍ.

ما عاد يعنيني ما كان يعنيني؛ أرض الله واسعة بخيره وعظمته فلا الطغيان باقٍ ولا الاحتلال سيبقى في أرض الحق والسلام، لكن هذا البؤس الخفي بين أضلعي يحوي حزنًا متسرب القاع، وهمًا جليًا متقاعدًا في قلبي، لم يعد الألم يملك ما يشغله غير البقاء بداخلي حتى أمسيت أجد به مهربًا من غياهب الظلم والتعذيب، لطالما كنت هنا بين السواد الأعظم من الروح، وسط الليالي الخالية من الدموع والمكفهرة بالصدوع، وبين بؤس ينبض بجزعٍ شديد هناك أمل ينتظر أن يزهر يومًا.

كلي يقين و إيمان بأن عدل الله مكتوب وبأن الحق ظاهر حيث الباطل سيزهق، هنا الروح والفؤاد في ركوع لله وحده، هنا حيث الوطنية تُكتب بدماء الشهداء والبسالة تحمل بالدين والإيمان، ستضيءُ الشّمُوس خبايا كل فلسطيني حزين، ثمّ ستحاول أن تُقنع البائسين أن هذا النُور المُتوهّج فينا سيشرق في بقاع هذه الأرض

المقدسية المباركة، ستنبثق أنوار الحب من أعماقنا بلحظة أملٍ ساطع ويقين شاسع، سنخبرهم يومًا أن الحياة بربيعها وخريفها فُصُول ومراحل، كُلها ستتعاقب على أراضينا، ستجفُّ أيّامُنا بعد صبيب نافع وستذبُل الأحلام لتنبت بعدها براعم مخضرة بالحياة فالذُّبُول حتمًا لن يدُوم، والفرح وإن طال انتظاره سيأتي مُحملًا بأماننا المُزهرة، أخبروا كل جبروت وطغيان أن الله سينصرنا، وستعود فلسطين أبية حرة.

الشهيدة بإذن الله أماني.»

أغلق وطن المذكرات ومسح دموعه المنهارة بغزارة، دعا لوالديه بالرحمة والمغفرة ثم انتفض إثر سماع أذان المغرب، وجد بجانبه الفتاة الصغيرة التي غفت بجانبه من كثرة التعب وحملها باحثًا عن جدها، وضعها على سرير بعد توصية أحد الممرضات وذهب للصلاة.

هنا لم ينتفض وطن وحده، بل في كل يومٍ تنتفض فلسطين، لا لرفعِ الزَّناد أو لوقعِ الرَّصاص، بل لجريمةِ عشقٍ تُوِّجت بدماء الشُّهداء... قد انطفأ سراجُ بيتٍ مباركٍ، وخفُت نور فلسطين باستشهاد أماني، لكن شرارةُ الحبِّ لن تفارق أسيرةً قضيَّتها بوحٌ للحبيب وقطعة الفُؤاد بحبِّ الوطن.

(4)

رَسائلُ التُّوت

مقدمة

وتنتشلنا لطائفٌ ربانية من أحزاننا المكتومة فتملأ صدوع الأفئدة بنسائم الإيمان، فكلُّ عبدٍ هو ضعيف أمام الدُّنيا، فكيف يُهزم والله معه؟

كانت الأوراق متناثرةً أمامي، وعقلي تجوبه الأفكار من كل حدبٍ وصوب، أقبع بغرفتي الصغيرة ومصباح مكتبي الخافت أنيس وحدتي بمنتصف الليل، بينما الأرق قد نال مني هذه المرَّة، ليس بسبب أكوام العقود والملفات التي لم أكمل دراستها، بل لاختفاء السارقة؛ تلك التي قد سرقت مني فؤادي، ولم أعد أدري وجهتي التالية، انتشلتني من الفوضى والوحدة التي تناسيتها منذ زمنٍ ليس بالبعيد، وها هي ذي الأخرى قد اختفت، وتركتني أصارع وساوسي وأفكاري.

تقريبا منذ وفاة والداي بسنوات أجبرت على ترك شمال المغرب، والرحيل إلى عاصمته الاقتصادية، تاركًا بيتنا الصغير، وكل ما فيه لعلي أصنع ذكرياتٍ جديدةٍ مع وحدتي ولوعة الفراق، مع شوقي وحنيني إلى أيام طفولتي، مع أمنيةٍ ظننتها سرمدية في العيش وتكوين عائلة بعدما كنت الابن الوحيد لوالدي، ولعائلةٍ لم أرَ يومًا أو أعرف تفرعات شجرتها.

كنت بمنتصف العشرينات عندما استقررت بالمدينة، فقد بدأت أتعود على فكرة الوحدة، وأنني لن أعود لذكريات والداي ففراقهما ما زال ينخر كياني خاصةً عند تذكري لوفاتهما إثر حادثة سيرٍ أليمة، وقفت بعدها مرَّةً أخرى، وأخذت أسارع الزمن لأعيش، خلالها بدأت برسم هدفٍ وسببٍ قوي كي يجعلني أكمل مسيرتي، وأتشبث بهذه الحياة رغم قساوتها لكن بأملٍ كنت أظنه زائفًا، تعرفتُ حينئذٍ على

جارٍ فلسطيني كان يسكن بالقرب من الشقة التي استأجرتها، كان يعمل كمراسلٍ صحفي لأحد الإذاعات التلفازية المغربية، لهجته كانت فصيحةً جدًا، يكاد من يراه أو يحادثه يحسبه مغربي الأصل، هو الآخر اعتاد على العيش هنا بعيدًا عن تلك الظروف القاسية، وغالبًا ما كان يحدثني عن وطنه ولوعة حنينه إليه، فجعلني أرى الحياة من منظورٍ آخر بعدما قصَّ علي استشهاد جميع أسرته منذ عشر سنوات؛ فلكلٍ منا وحدةً وغربةٌ مختلفة، ألمٌ وأملٌ يجعلان الإنسان على قيد الحياة، وأمنيةٌ نصرٌ على تحقيقها.

قاومت الظروف وتحديات العيش؛ لأجد عملًا بأحد المكتبات الجامعية، فقد كنت شغوفًا منذ نعومة أظافري بكل ما يتعلق بالأدب والقراءة، درست الاقتصاد موازاةً مع تنمية الشغف لمهارات الإلقاء والخطابة فضلًا على الكتابة، مرت بضعة أشهرٍ ليتم قبول طلبي في العمل بدار نشرٍ مرموقةٍ، وأحد فروعها المغربية بمدينة الدار البيضاء حيث أقطن حاليًا، بدأت العمل الجديد، وكان راتبه مناسبًا بكوني مساعد المدير العام لفرع تلك الدار، مع تكليفي بتنظيم فئة المسابقات الأدبية والورشات الإبداعية للكتابة، والتي تقيمها الدار إلكترونيًا.

كنت أتواصل مع الشباب، لكن هذا التواصل من نوعٍ خاص، لا يكفيني قبول أعمالهم والإجابة عن تساؤلاتهم، وإنما كنت أساعدهم

وأقـدم لهـم النصـح والإرشـاد، فضـلًا عـن تقـديم النقـد والقـراءة لأعمالهم، أردت أن يصبح كل مبتدئٍ وشغوفٍ كاتبًا عظيمًا، أن يبث رسالته ويوصل موهبته في الكتابة لسماء الأدب، فقد أثبت المغرب منذ عقودٍ طويلةٍ أنه بلد ثقافي وأدبي بامتياز، لكن سقف طموحي قد جاوز التوقعات بعدما بدأت دار النشر بالمشاركة في الملتقيات الأدبية الشهيرة والمعارض الدولية.

مرت ثلاث سنواتٍ على استقراري بالمدينة وتأقلمي بأجوائها الحركية، اعتدت الغربة في وطني، والوحدة بين الكتب ومكتب العمل، لكن شيءٌ ما كان مفقودًا في حلقات حياتي، ويفقدني معه معنى الحياة، أو بالأصح ألوانها ولذتها الحقيقية.

عند اقتراب فتح المعرض الدولي بالمغرب، نظمت دار النشر مسابقةً أدبيةً حول خاطرةٍ عن الحب مع نص من اختيار الكاتب شرط ألا يكون من نفس موضوع الخاطرة، استقبلت الأعمال كالعادة وكلي فرحٌ بهذه الثمار، ولاسيما أن الأعمال الأدبية كان من بينها خمس مشاركاتٍ مغربيةٍ من أصل خمسةٍ وأربعين مشاركة من باقي الدول العربية، لكن لفئة الخاطرة لفت انتباهي عملٌ أدبيٌ كتب بكلمات رقيقة، وكأنه لم يكن مخصصًا للمسابقة، وإنما لهذه القطعة القابعة بأيسر صدري...

قرأت النص كاملًا عشر مرات أو أكثر من شدة جماله، لكن أكثر ما لامس شغاف قلبي هو هذه الأسطر الدقيقة والمفعمة بالمشاعر:

«...آمنتُ حينئذٍ يقينًا بأنَّ اللهَ خلق القُلوب يوم خلقِ السَّماوات والأرض بهيئة قَلبين مُتشابهين في أجسادٍ مُختلفة، يلتقيانِ بقدرهِ الإلهي، وكأنَّ رُوحيهما مُجنَّدةٌ لذاك اللِّقاء، قد فاض قلبي من شوقٍ لرُؤيةِ شبيهه...»

تنهدت في نفسي وأنا أقول:

-يا الله ولجمال هذه الكلمات! عسى الله أن يرزقني روحي الثانية فتضمد هذا الفؤاد من صدوعه.

تأملت مليًا في المفردات ورقتها، في التعابير ووصفها، وفي المشاعر المنسكبة في كل حرف، حتى كدت أن أجزم بأن هذا النص حاشا وأن يكون لكاتبٍ مبتدئ، أو حتى متمرس، بل فاق التمرس والعظمة ليكون وقعها على قلبي قبل لساني الذي يقرأ، وتفكيري الذي يحلل، تمَّ تحليل النصوص وترتيب الأعمال حسب قلة الأخطاء اللغوية والنحوية، ثم من خلال قوة المفردات وفصاحتها بموضوع المسابقة.

لم أكمل تقييم الأعمال وكلي لهفةٌ؛ لمعرفة صاحبها، ولكن حال القلب قد أوحى لي بأنها فتاة وليس شابًا.

تم تكليفي بدراسة أحد الملفات لعقود مع أحد المطابع الجديدة، وكانت الإدارة حينئذٍ قد حددت الجوائز الرمزية، والشهادات التقديرية التي سيتم إرسالها عبر الفروع بالدول، وللمشاركات الخمس بالمغرب ستقدم لهم الجوائز مباشرة بالأيام الافتتاحية للمعرض الدولي.

تم إرسال مواعيد وصول الجوائز لكل مشاركٍ، بينما تبقى لافتتاح المعرض أسبوعين، كان العمل على قدمٍ وساق، وعقلي ينهشه التفكير عن صاحبة تلك السطور الذهبية، وبعد انتهاء التقييم لم أفكر في طلب مراجعة التقييم أو إلقاء نظرة على معلومات الفائزين، فقد كانت كثرة التجهيزات والإعدادات قد أصابتني بالتعب والإرهاق من شدة العمل والجهد الذي بدلته في تلك الفترة القصيرة.

إنها ليلة ما قبل الافتتاح، كنت قد جهزت بالفعل حقيبة أغراضي الشخصية بحكم أن العمل بالمعرض سيمتد لأسبوعين، كنت مستلقيا على الفراش وأحدق في تلك الزخارف التقليدية التي على السقف لساعات، لدرجة أنني شعرت بأن تلك الزخارف تعبق بالتراث والثقافة المغربية، لكنني لم أتصور يوما أن أصل لهذه الدرجة من التفكير العميق في شخص مجهول، فقد مرت ساعاتٌ وساعاتٌ في التحديق ناحية الفراغ واللا شيء، لم أعرف معنى الحب يومًا، وما إن

عرفته حتى وقعت في شباك سطورٍ مخمليةٍ، لعلها كتبت بمسك الحب وشهد الغرام، وللآن لا أعلم كاتبته، هذا وإن كانت فتاة في الحقيقة.

أيامي كانت رتيبة، وفي وحدةٍ باردةٍ أثلجت فؤادي بعد فراق الوالدين، حتى بت في روتينٍ يومي متكرر دون روح، لكن كانت هناك دوامةٌ لم أستطع تجاوزها، أو رؤية خارج نطاقها؛ لأعيش الحياة، تنهدت بعمق لتنسدل أجفاني مستسلمًا للنوم، لكنها كانت فقط ثلاث ساعات؛ لأستيقظ بعدها مع أذان الفجر ثم أتخذ وجهتي إلى العاصمة الإدارية، حيث مسكن عائلتي الأول، وسنوات طفولتي الأولى قبل انتقالنا لاحقًا بشمال المملكة المغربية.

وصلت لأستنشق بهدوء هواء العاصمة الذي كان يلفح بنسيم ذكرياتٍ، وأجيج آلامٍ من نوعٍ ثانٍ، فررت من ذكريات والداي بغصَّة، وها هي الآن باتت تلاحقني رغم نسياني لكثيرٍ من التفاصيل... صببت تفكيري جانبا بعدما التحقت بالمعرض، بدأنا في تنظيم مساحة العمل ثم اتجهت إلى أحد الأروقة التي ستقدم فيها الجوائز، جلت بنظري المكان الذي بدأ في الاكتظاظ بسماح دخول العامة إليه، وكان العاملون بالدار قد انتهوا من الترتيبات بالفعل، مرت الفترة الصباحية باستقبال الزائرين وبعض الكُتَّاب المرموقين لكن هذا لم يكن شاغلي أو موطن سعادتي بقدر حلول الفترة المسائية حيث حفلة توزيع الجوائز.

وقفت في أحد الزوايا في انتظار الحدث؛ تم تقديم جائزتي شرف للمركز الخامس والرابع لتلميذتين في الثانوي، تمت قراءة أعمالهما الأدبية الشخصية ثم قدمت الجائزة الثالثة والرابعة لشابين أحدهما كان طالبا جامعيا والآخر قد تخرج منذ سنتين، كذلك قد قرأ كل واحدٍ منهما عمله الأدبي المتميز تحت تصفيقات الحضور من زائري المعرض، لجنة التحكيم وأعضاء دار النشر، وبعض الصحافة العاملين بإحدى القنوات التلفازية؛ كنت على نارٍ من الفضول لمعرفة صاحب المركز الأول ليتم استدعاء الاسم من قبل مقدم الحفل:

-جنين محمود، صاحبة المركز الأول فلتتقدم مشكورة.

صدى صوت التصفيقات لتتقدم فتاة في بداية العشرينات، كانت ترتدي فستانًا أخضر اللون مع حجابٍ واسعٍ وطويلٍ في البني... دققت في ملامحها الرقيقة، بشرتها الخمرية، وعيونها التي تشبه لون الحجاب، ولوهلة ظننتها حلمًا أو ضربًا من الخيال؛ لتتفتح خلالها حواسي عند سماعي لصوتها الرقيق وهي تعرف بنفسها:

-السلام عليكم ورحمة وبركاته.. شكرًا جزيلًا على هذه المسابقة التي تهتم بالأقلام المبدعة، كما الشكر موصول إلى دار نشر "سحر القلم" بدءً من مديرها العام وكافة الأعضاء، معكم جنين محمود طالبة بالسنة الأخيرة بمعهد علوم وتقنيات التمريض بالرباط...

كانت طالبةً في أحد معاهد التمريض بالعاصمة عينها، انطلاقًا من كتابتها وحديثها يبدو بأنها شغوفةٌ بالقراءة والمطالعة رغم تخصصها العلمي، تأملت تحركاتها بدقة، ثم بدأت تلقي كلمات الخاطرة التي شاركت بها قائلة:

«أمطرتِ السماء رصاصًا وفاضت الأرض بسيل الدماء المتدفقة من تلك الأجساد التي أمسى أصحابها شهداءً في الفردوس، قد رفرفت أرواحهم النقية والمتدثرة برداء الإيمان والفداء، لتستقبل صدورهم العارية ما ظنوه هدية السماء، غير أبهين لما سيصيبهم حين تلامس تلك القطع الملتهبة أجسادهم، إنه ليس عرضًا ترويجيًا لفلم خيالي، بل هو تصورٌ حقيقيٌ ومُعاش لمأساةٍ من آلاف المحن للشعوب المضطهدة، فكيف إذا كان وطن عربي كفلسطين يقاسي، ويكتب اليوم مئات الاستشهادات وآلاف المآسي، عذرًا فما هي بمآسي، و إنما قصص بطولات وشهادات رُزق بها أبناؤها العظماء.

توجعنا القدس وتؤلمنا غزة، يقتلنا الصمت وتقهرنا عروبة أمست اليوم عنوانًا فقط، وفي قلبي اقتباس يثلجه من روعة ما يحل بفلسطين: "الآن يَرتَقِي الشُّهدَاءُ جُملةً وَاحِدةً، أَتَخيَّلُ أبوابَ الجَنَّةِ مُزدحمةً جِدًّا، وَالطَّريق بينَهَا وبَينَ غَزَّة لَا يَنقَطِع..." يا الله كيف سيكون المشهد حقًا يوم القيامة، عند امتلاء أبواب جنةٍ

عرضها كعرض السموات والأرض بأبناء فلسطين، ورغم ذلك سيصدق الوعد على الأرض قبل السماء، فسنة النصر لا بد أن تكون مسبوقة بسنة الابتلاء.»

علت تصفيقاتٌ حارةٌ، لكنها لم تكن كحرارة تلك الدمعات على خدها المحمر، فابتسمت وهي تكفكف تلك العبرات بأطراف أناملها الرقيقة، ثم استلمت الهدية التي قدمتها لها بناءً على طلب النائب العام؛ كنت في عالمٍ آخرٍ بجانبها، بينما قلبي يرتعش في هدوءٍ وبحالةٍ مريبة، شيءٌ ما تملكني، بل أسر روحي لهالتها الطيبة بحيائها، حجابها، وكلماتها التي كانت فعلًا صادقة ولامست الفؤاد، والتي ذكرتني بجاري العزيز، وما كان يحكيه لي في كل مرَّةٍ عن اشتياقه لأهله، لوطنه، ولحرية تلك الأرض المقدسية.

التقطنا صورًا تذكاريةً على منصة التقديم، وقبل أن تغادر نبست لي بصوتٍ خافتٍ، وبكلمة واحدة:

-شكرًا.

تأملت خجلها واحمرار وجنتيها، ثم ابتعدت عن المنصة بهدوء راكضةً نحو رجل في الخمسينات من عمره، ملامحه تشبه ملامح جنين، ولا سيما في ابتسامتها وشكل عيونها البنية، وهذا يدل على أنه والدها والذي استقبلها بسعادةٍ تشق ملامح وجهه، وبحضنٍ دافئٍ

اختبأت هي فيه، زاد تأملي وطالت نظرتي لتتزلزل مشاعري من جديد تجاه حنيني لحضنٍ أبوي كهذا؛ رفعت رأسي عاليًا وأنا أدعو لوالدَيّ بالرحمة والمغفرة، وما إن لُحت ببصري تُجاه ما كنت أناظره قبل ثوانٍ معدودات، وجدتهما قد اختفيا في لمح البصر بين الجموع، بدأت أبحث بلهفةٍ عنها، وأجوب بنظري حول المكان المكتظ، لكن لم يسعفني التجول بعيدًا والبحث عنها، خاصة وأن مدير الدار ناداني ليقدمني إلى بعض المسؤولين والكُتاب المرموقين.

لم أكن أدري ما سبب لهفتي في البحث عنها وعن والدها، أو حتى نبضات فؤادي التي تسارعت فجأة لأشعر خلالها بالاحمرار والحرارة، ولربما كل هذا من أجل سؤالها عن تلك الكلمات التي خلدت في كياني، ولـلآن أشعر بها كالثلج والبَرَدِ تتساقط في جوفي، وتروي عطشًا لا ينضب ولا أعرف كنهه.

عادت بي الذاكرة للواقع بعد مرور أكثر من خمسة أشهر من هذا اللقاء، وفي كل ليلةٍ أتكئ على حائط غرفتي أمام سجادة الصلاة وأنا أتأمل صورتنا معًا في هاتفي، وأركز على ابتسامتها المشرقة، وهي تمسك بالجائزة بعدما رفضت مصافحتي بخجل، ابتسمت أنا الآخر كعادتي لكن بهذه اللحظة بالضبط قد ترددت مرَّةً أخرى في فتح محادثة معها على مواقع التواصل الاجتماعي بعدما كانت عملية المراقبة عن بعد جيدة، بلغت أوج اضطرابي فلم أعلم ما هو حالي أو كيف أشعر،

وكأنني غدوت اليوم مراهقًا أتخبط بين الإعجاب والحب، خاصةً بعد اختفاء تلك الفتاة من مواقع التواصل الاجتماعي...

لكن كيف يكون مجرد إعجاب، وأنا أحببتها قبل رؤيتها بأفكارها ومبادئها، من كلماتٍ خطتها أناملها الرقيقة، إلى الغوص في أعمق تفاصيلها يوم لقائنا بأنوثتها الطاغية بين ردائها العفيف، بشخصيتها ورزانتها في الإلقاء والحديث، أهكذا يكون الحب فعلا؟ أم أنني جاوزته للهيام رغم أنه من طرفٍ واحد؟

صرت كالمدمن بين الدقيقة والأخرى، أفتح حسابها في مواقع التواصل الاجتماعي لأقرأ منشورًا جديدًا، رغم أنها كانت تنشر بين الفينة والأخرى، إلا أنني كنت أتتبع أخبارها أو بالأحرى كتاباتها المخملية التي أدمنت قراءتها فعلًا، وبعد أن استجمعت كامل قوتي وشجاعتي عزمت على الحديث معها، لكن في اليوم ذاته اختفت وتبخرت من على مواقع التواصل الاجتماعي، لا سيما وأنها لم تشارك فيما بعد بأحد المسابقات الكتابية التي أقامتها الدار بتعاونٍ مع جمعية تُعنى بالقراءة.

بدأت الأيام تمر رتيبة، وأنا بين عملي وتفكيري فيها، وللآن لا أدري كيف وقعت في غرامها بهذا السرعة، فبعد إجازة قصيرة عدت لروتين العمل الذي أحبه، وكعادتي أخذت أنظم عقود بعض الكُتاب الجدد

قبل توقيعها معهم لكن استوقفني اسمها، لم أصدق في بادئ الأمر حتى وقفت مندهشًا في مكاني وأنا أقرأ جهرًا..

«بسم الله الرحمن الرحيم

عقد لدى دار نشر "سحر القلم"

تم الاتفاق بين الطرف الأول دار نشر "سحر القلم" أي الناشر، وبين الطرف الثاني الآنسة "جنين محمود" أي الكاتب، على أن يلتزم كل منهما ببنود العقد للعمل الروائي "ترياقٌ من غرام"...»

لم أتمالك نفسي حتى وجدت أنه من فرط الحماس والسعادة خرجت إلى بهو الاستقبال، حيث العاملين معي بالدار كانوا ينظرون إلي بغرابةٍ شديدةٍ بعدما صرخت من الفرح، طأطأت رأسي بخجل واعتذرت عن حماسي وضجيجي، ثم عدت أدراجي لأدلف المكتب من جديد.

ما زالت الفرحة تشع من مقلتي، وأنا أربط خيوط كل هذه الأحداث، فاختفاؤها كان بسبب انشغالها بروايتها الجديدة أو بالأصح مولودها الأول، وضعت العقد جانبًا لأغرق في التفكير من جديدٍ بهذه

الرواية "ترياق من غرام"، كدت أن ألعن نفسي من كل هذا وبداخلي ألف سؤال... ألهذه الدرجة وقعت في الحب من مجرد سطور، والآن من عنوان رواية لم أقرأ مقدمتها، إهداءها، أو حتى فصلها الأول؟

مسحت على شعري لأتناسى أفكاري ثم هممت في إتمام العمل، وعقد جنين كنت ألقي عليه نظرات خاطفة بين الفينة والأخرى، والابتسامة لم تفارق محياي حينئذٍ.

أتممت في ذلك اليوم دراستي للعقود، وقدمتها للمدير الذي أمدني بكامل التفاصيل لإكمال إجراءات التوقيع مع أصحابها، كان عقد جنين هو آخر عقد للتوقيع والذي تم تأجيله لآخر الأسبوع.

عدت أدراجي وأنا أعد الأيام عدًا، وكأنها أضحت وئيدةً تنافس الحلزون فيمن سيكون الأبطأ بينهم، أو أن الزمن قد توقف في تلك الأيام؛ لأشعر وكأنها قرونٌ طويلة الأمد، فمن شدة ثقالة الأيام ورتابتها قبل حلول نهاية الأسبوع، عكفت في البحث عن أحد المذكرات التي كنت أكتب فيها بعض الخواطر في أيام الثانوية، وبمشقة وجدتها مع بعض الكتب التي جلبتها معي من منزل والداي.

فتحت كتاب المذكرات الذي كان عن عنوانه **"رسائل التوت"**، تمعنت مليًا ذاك العنوان، وأنا أستحضر بعض الذكريات رفقة والدي، عندما كان يسرد لي قصصه العجيبة في المراهقة، وبالخصوص

لقاءه الأول بأمي ثم بداية قصة حبهما الأبدي، فكان يرسل لها في ذلك الزمان الرسائل المكتوبة بالحبر على نوعٍ خاصٍ من الورق، ويختمه في النهاية بختمٍ من الشمع ذو رائحةٍ خاصةٍ ومميزة، وهي رائحة زهور البرتقال التي تذكره بلقائهما الأول في أحد الحدائق، وبالضبط تحت شجرة برتقالٍ مزهرةٍ في الربيع...

لطالما كنت معجبًا بحبها، بمودتهما، وبعلاقتها الطيبة التي أثمرتني لهذه الحياة، فراقني أن أقتبس الفكرة بطريقةٍ أخرى، ولا سيما أنه كان لدينا حديقة واسعة أمام بيتنا القديم، كنت أجلس خلال فترات المراهقة وبداية الشباب قرب شجيرات التوت المزروعة فيها، وأكتب ما يمليه علي فؤادي حينذاك، وأنا آكل من التوت حينًا أو تتسرب إلي رائحته العطرة إلى أنفي، فأشعر بالإلهام والشغف قد تصاعد؛ لأكتب ما يخطه قلمي من شعر وخواطر، لعلي أهديها مستقبلًا لمن ستأسر روحي، وها أنا اليوم افتحه بعد سنوات من انتقالي إلى هذه المدينة الصاخبة.

كان الغلاف باليًا بعض الشيء، مسحته بخفة بيدي ثم فتحته، وبدأت في تقليب الصفحات بلهفة، وأنا أبحث عن خاطرةٍ مؤثرةٍ لعلي أسلي نفسي بها، وأقف عند سطورها وكلماتها العميقة، وبين مائةٍ وثمانين صفحةٍ وجدت ما أريد؛ لأبدأ في الابتسام مع القراءة جهرًا:

«لحظةً أناظرُك بعشقٍ متين لا يفتر أبدًا، تترقرق فيه الدُّموع بعيني و أبتسم سعيدًا للقياك؛ كم كنتُ أتوق إلى هذا اللِّقاء المميز، لقاء حبٍّ عفيفٍ يملأ تجاويف القلوب محبةً وسكينةً بوصال الحلال، أرى فيه نظرة عينيك اللَّامعة وهي تشع سعادة، وتجاعيد ابتسامتك التي لا تكاد تختفي تجعلني أغوصُ بين ثنايا فؤادي.

اعتدت الوحدة والفراغ أملًا في العيش بطمأنينةٍ وهدوء، لكن ما بال قلبي يتخبطُ بين الضُّلوع لمجرد أول نظرةٍ شرعيةٍ لنا، أحببت هدوءك وهالتك المُقدسة بالحبِّ والهُيام المستكين، فقد وقعت في أسرِ قلبك الدافئ وأمواجِ سعادةٍ سرمدية، بعدما كنت أعيش بين صخبٍ وشتاتٍ دون التَّفكير في ملأ هذه الفراغات بحياتي والتَّجاويف بقلبي.

ما عاد قلبي لي حينما لامَستني بصدقك وحبِّك، شعرت بطمأنينةٍ وراحةٍ أكبر اجتاحت كياني، حاوطتَ بكفيك يدي المُرتعشة لتضمها بكلِّ دفءٍ مُتبقي من روحك.»

اتسعت ابتسامتي بسعادةٍ أكبر، وأنا أتذكر هذه الخاطرة التي وقعتها في الأخير بجملة:

"من رسائل التوت:

اعترافٌ لحبيبتي في الحلال إن شاء الله."

ضممت المذكرات لصدري، وقلت بتنهيدةٍ عميقة:

-هذا الاعتراف قد كُتِبَ لكِ بحق.

مرت الأيام برتابتها، وكلي شوقٌ ولوعةٌ في انتظار قدومها لتوقيع العقد، وقد عزمت على فتح الحديث معها.

أتى يوم توقيع العقد، كانت كزهرةٍ متفتحةٍ في البستان بفستانها البنفسجي وحجابها الأخضر، وكالعادة كانت برفقة والدها، تقدمت لتوقيع العقد، وأنا أراقبها عن كثب في أحد زوايا مكتب المدير العام، لكن شيءٌ ما قد أخبرني بأنها ليست اللحظة المناسبة للحديث، وليس الوقت الصحيح؛ لاغتنام الفرصة من أجل هذه اللحظة التاريخية.

كان من بنود العقد أن دار النشر ستتكلف بطباعة الرواية، ونشرها بعد الإعلان عن صدورها، والقيام بحفلة توقيعٍ للكاتبة في أحد دور الشباب الثقافية، فكرت مليًا، ووجدت بأن حفلة التوقيع ستكون مناسبةً جيدةً لطلب يدها للزواج منها.

كانت الأحداث تتسارع مع مرور الأيام لأجد نفسي متوترًا أمامها، ها أنا الآن، ببدلتي الأنيقة مع إدارة الدار نتابع حفلة الكاتبة جنين، قدمنا لها شهادة تميز وبعض الجوائز التشجيعية، وقد رافق الحفل قدوم بعض الشخصيات البارزة في سماء الأدب، هذا إلى جانب حضور

بعض الكتاب الشباب الذين تعاملوا مسبقًا مع دار النشر، وقبيل الانتهاء مددت لها روايتها قائلًا بابتسام:

-هل يمكنك توقيع لي رو ايتك يا آنسة محمود؟

نظرت لي بابتسامة رقيقة ثم أشاحت بوجهها سريعًا في خجل، قامت بالتوقيع، وكتابة كلمات صغيرة ثم مدت إلي الرواية قائلة:

-أتمنى أن تعجبك.

همهمت بخفة مجيبًا:

-لقد قرأتها بالفعل، ور اقتني أحداثها وشخصياتها.. اللهم بارك في إبداعك يا آنستي الجميلة.

وجدتها قد تمتمت بكلمة **"شكرًا"**، لكنها قد انتبهت للكلمتين الأخيرتين، فابتسمت في خجل.

كانت تقف وحيدةً وهي تتأمل بعض اللوحات الفنية المعلقة على الحائط، لم أستطع النظر إليها مباشرة، واكتفيت بالنظر إلى روايتها التي بيدي، استجمعت قوتي وشجاعتي رغم تسارع نبضات قلبي وإصابتي بقشعريرة غريبة، لم أعهدها من قبل، ثم تقدمت نحوها قائلًا:

-آنسة جنين، لقد أحببتك بصدق لمجرد قراءتي لكتاباتك وكلماتك، لا أعرف كيف تسلل هذا الشعور إلى قلبي، لكني على يقين بأنك الوحيدة والقادرة على ملء تجاويفه وتصدعاته بنسائم معطرة بالود والسكن...

صمتت قليلًا وأنا أتنفس براحة لأخرج توتري واضطرابي، وأردفت قائلًا:

-أعلم بأن حديثي غير مناسب هنا، ولست متأكدًا بأنك ستقبلين بي زوجًا أم لا، لكن إلى حين ردك سأترك حبي لك أمانة عند الله سبحانه وتعالى، وإن كان هناك نصيب سيكون أسعد يومٍ بحياتي، سأتحدث مع والدك أولًا بعد انتهاء حفلتك، ثم سأنتظر ردك قريبًا.

حالما أكملت كلامي وجدتها تفرك يديها بخجل، لتقول لي بصوت متلعثم:

-إن شاء الله.

ثلاث كلمات قد أحيت فؤادي من جديد، وجعلت نبضاته تتسارع بعنف مضاعف، وكأنها قد أبلغتني بموافقتها الأولية في انتظار رد وموافقة أسرتها.

بنهاية الأسبوع كنت قد أعددت نفسي لزيارة بيتها -نظرة شرعية- وحدي، استقبلتني أسرتها بترحاب كبير، وكعادة الأسر المغربية لم تخلو المائدة من الحلويات والمأكولات التقليدية، تحدثت مع والدها في دردشةٍ ودية ولطيفة، إلى جانب حضور جدتها، عمتها، وخالةٌ لها، وعلمت حينئذٍ بأن والدها فلسطيني الأصل لكن زوجته المتوفية مغربية، وقد التقاها في أحد المؤتمرات العلمية بالسعودية، ليتزوجا بعدها وينجبا ثمرَّة وحيدةً مثلي، دون إخوة أو أخوات، لكن كنت أرى لمعة الحزن في عينيه، وتلك الغصة التي اعتلت حلقه حينما ذكر لي زوجته وبعضًا من ذكرياتهم قبل ولادة جنين، وقد كانت هذه الأخيرة تخفي حزنها وراء ابتسامتها المعهودة.

تركنا والدها وأسرتها لنحظى بدردشةٍ خفيفة من أجل التعرف، وكنت حينئذٍ أكثر توترًا من أي وقتٍ مضى، رفعتُ رأسي نحوها وإذا بي أرى القمر عينه، بل ملاكًا نورانيًا لم أره قط، جلست أمامي وهي تلقي علي السلام فأجبتها بصوت خافت، لأن في تلك اللحظة شعرت وكأن شيئًا ما قد اخترق فؤادي، ربما لأنني أراها لأول مرَّة عن كثب لكن بطريقة مختلفة جدًا عما سبق، كانت ترتدي قفطانًا بلونٍ أزرقٍ سماوي، بزخرفة من الطرز المغربي الأصيل، وقد ختمت الحلة البهية بحجابٍ وردي يتناسب مع لون الطرز، مرت بضع ثوانٍ من الصمت أو

بالأحرى من تأملي لها بدهشة وإعجاب كبيرين، لتخترقه بطرح سؤالٍ واحد وكانت تضم يديها بخجل وتوتر:

-لماذا اخترتني أنا بالضبط؟

لم أتوقع مثل هذا السؤال لكوني قد وضحت لها الأمر مسبقًا، ورغم ذلك ابتسمت أنا الآخر في خجل وقلت لها وأنا أصوب نظري تجاه رأسها المطأطئ نحو الأرض:

-بل نصوصك، سطورك، وكلماتك هي من اختارتني.

رفعت رأسها تجاهي بدهشة لأردف مبددًا حيرتها تلك:

-شيءٌ ما شدني إلى كتاباتك، وكأنك كنت تكتبين عني أو تصفين حالي، في كل صلاة كنت أدعو الله أن يرزقني زوجةً صالحة فأجد اسمك يتردد بين دعواتي، اسمك لم يفارق ذاكرتي حتى قبل أن ألتقي بك كنت أفكر فيك بتلك الكلمات البليغة والعميقة، فأيقنت حينئذٍ أن الله قد ساقك إلى دربي القاحل لتزهريه من جديد.

صمتت قليلًا ثم قلت لها:

-ربما لا تعرفينني، لكنني أعرفك حق المعرفة، وكأن بيننا ترابطٌ وطيد منذ زمنٍ بعيد، أوكأن روحي قد التقت روحك مسبقًا لأشعر بكل هذا الانجذاب والألفة تجاهك، أنا عمر شابّ وحيد بعد وفاة

والدي منذ سنوات، قريبًا سأتمم الثامنة والعشرين من عمري، أعمل في دار النشر التي أقامت المسابقة التي شاركت فيها، ثم طبعت لك رو ايتك مؤخرًا، والحمد لله فلولاهما لما وقعت في غرام سطورك وكلماتك المرهفة، ولما كانا سببًا في لقاءنا هذا... طلبي الوحيد هو أن تصلي صلاة الاستخارة يا جنين، اسألي الله عني في سجودك، وستجدين قلبي هناك ينتظرك.

وجهت نظري نحوها وكانت تنظر لي بعينين مغرورقتين بالدموع، وحالما التقت أعيننا أخفضت رأسها بخجل وقالت:

-و أنا كنت أسأل الله أن يرزقني زوجٍ صالحٍ طيب، وقرة عين يعلم أن أساس الزواج هو المودة والرحمة، ذو دين وخلق وشهامة في الحديث والمعاملة، وإن شاء الله عسى أن يكون لنا نصيب.

وفي هذه اللحظة ابتسم قلبي بدل ملامحي البشوشة، ودعوت الله في سري أن يجعلها من نصيبي، فقد تعلقت بها أكثر وأكثر، لأنها الوحيدة التي أحيت روحي من جديد، وبللت رمق وحدتي وحزني بحديثها، جمالها، حيائها، وأدبها في الكلام مع الآخر، ورغم أنني لم أكن أفكر بالارتباط وتكوين أسرة إلا أن فؤادي قد وجدها المناسبة لي دينًا، خلقًا، جمالًا، ثم علمًا وثقافةً، وبعد هذه النظرة الشرعية وافق والدها وأسرتها على زواجنا شرط أن تكمل الأشهر الأخيرة من دراستها.

كان التعب بدأ يتضح على ملامحها بسبب إرهاق الامتحانات النهائية وبحث التخرج، لكنها كانت تخفيه بابتسامها وحديثها لي عن طموحاتها، ومع ذلك أقمنا حفلة خطوبة قبل أن تبدأ امتحاناتها، وقد حددنا بعدها موعد عقد القران الذي سيكون بعد أربع أشهر، حينئذٍ ستكون قد تخرجت فعليًا وحصلت على شهادتها ووظيفة في مستشفى ما.

في ليلة خطوبتنا، كنت محفوفًا بجوٍ عائلي بهيج قد أعاد لي نبض الحياة ومعنى فرحة الأسرة من جديد، شعرت حينئذٍ بأنني جزء من عائلتهم منذ اللحظة الأولى، وقد شاركني جاري وصديقي المقرب هذه الفرحة.

بعد الخطوبة بشهرين ونصف انقطعت الأخبار عن جنين وأسرتها، كنت أحاول الاتصال بهم وإرسال الرسائل لكن لا من مجيب، حتى عقدت العزم في الذهاب إلى العاصمة وزيارة بيتها، وعند وصولي لم أجد أحدًا في البيت، لذا قمت بسؤال أحد الجيران ليصدمني بخبرٍ صاعق.

أخبرتني الجارة بأن جنين مريضة منذ فترة قصيرة وتقبع في المستشفى الذي كانت قد بدأت تعمل فيه كممرضة منذ شهر، لم أشعر بنفسي إلا أمام باحة الاستقبال وأنا أسأل بخوف وتوتر عن

المريضة جنين محمود، وعند وصولي إلى الغرفة المعلومة طرقت الباب في انتظار أن يُفتح لي، مرت بضع دقائق وحسبتها شهورًا وسنوات، ليفتح لي والدها المتعب الباب مذهولًا، دلفت الغرفة وإذا بجميلتي قد ذبلت بفعل المرض، فمنذ تعبها بعد الخطوبة أجرت بعض الفحوصات الطبية ليتم تشخيصها بمرض سرطان الكبد الذي كان في بداياته، ومع ذلك لم تبدأ العلاج قط، ولم تجد متبرعًا مناسبًا لها.

كنت أنظر إليها بانكسار دون أن أعاتبها عن اختفائها، أو بالأحرى عن عدم إخباري بمرضها، كانت شاحبةً بسبب المرض بينما جسدها قد أصبح نحيلًا بعض الشيء، ورغم ذلك ملامحها البشوشة، وقسمات وجهها النوراني لم يتغير أبدًا، أطلت النظر إليها لأجد عيونها تتلألأ بالدموع، وبيدٍ مرتعشة مع حركةٍ تدل على تعبها أخرجت من تحت وسادتها خاتم خطوبتنا، مدته إلي وقالت بصوتٍ خافت:

-أنا آسفة، أتمنى لك...

قبل أن تكمل جملتها أعدت الخاتم مسرعًا بين أناملها وقلت لها مقاطعًا:

-جنين، إياك أن تكملي حتى، فأنا اخترتك زوجة لأكون سندك وعضدك، موطن راحتك وأمانك، ذراعًا تسندين عليه رأسك، وصدرًا يضمك ويحتويك، ينبغي علي أن أكون معك في السراء

والضراء، وهذا فقط ابتلاءٌ من الله ليختبر صبرك و إيمانك، ألم تسمعي بأن الله يرزق أصعب المعارك لأقوى جنوده، إن شاء الله ستشفين وستكونين بخير.

وجدت دمعاتها تنساب بغزارة لتخذلني دمعةٌ حارة، وكأنها تعبر عن ألمي وعجزي، وفي حقيقة الأمر كانت كالملح على الجرح الغائر بداخلي، وتفكيري ينصب بخوف في هاويةٍ واحدة، وهي أن تغادرني هي الأخرى.

ضممت كفيها بحب وأنا أتمتم لها ببضع كلمات كالمواساة، لتومض فكرةٌ سريعةٌ في عقلي، تركتها في آخر ذلك اليوم لترتاح بعدما تأكدت بأنها قد استعادت أملها في الحياة من جديد، خرجت من الغرفة مع والدها الذي أثنى علي ودثرني بدعواته، لأسأله عن سبب عدم إخباري بمرضها، فقال لي بكلِّ حزن:

-بعدما علمت بمرضها لم ترد أن تخبرك عنه، أو حتى أن أقوم أنا بذلك، كما أرادتني ألا أبقى على تواصلٍ معك، لأنها كانت عازمةٍ على فسخ الخطوبة.

كنت أحلل كلماته بدقة وتفكير لأسأله عن السبب الحقيقي وراء كل هذا فأجابني بصوتٍ مهزوز:

-لأن والدتها قد شخصت بنفس المرض قبل خمس سنوات لكن عند المرحلة الثالثة أي الأخيرة، لتتوفى بعد التشخيص والعلاج الكيميائي بعامين.

همهمت بقلق لأذهب معه عند الطبيبة التي تتابع حالتها، شرحت لي الأمر بصورة أدق لأقول في نهاية الحديث:

-أود التبرع لجنين.

صدم والد جنين من قراري، ورغم معارضته إلا أنني حزمت الأمر فقط من أجلها وإن كلفني الأمر حياتي، واشترطت عليه بألا يخبر ابنته إلا بعد القيام بعمليتها.

بعد أيام قضيتها في بعض الفحوصات، وبين المستشفى للاطمئنان على جنين، أخيرًا زُفَّ إلينا الخبر؛ وهو إمكانيتي بالتبرع لجزءٍ من كبدي لها.

كانت جنين سعيدة بالأمر وفي الآن ذاته متخوفة رغم أنها لم تعلم بعد عن الذي سيتبرع لها، شجعتها ووالدها على القيام بالعملية لتخضع بعد إلحاح.

كانت تلك الفترة صعبة جدًا على الجميع، ومع ذلك بقيت إلى جانبها، وساندتها في كل خطوة على طريق الشفاء، وكانت صدمتها

الأكبر عند معرفتها بأنني المتبرع، بينما كانت قوتها، إصرارها، وتمسكها أخيرًا بالحياة مصدر إلهامٍ ونبضٍ متجدّدٍ لي، فلم أترك بعدها يومًا يمر دون أن أكون إلى جانبها.

بعد أن تغلبت جنين على المرض، وتماثلنا للشفاء معًا، عادت المياه إلى مجاريها؛ استعادت جنين عافيتها ثمَّ عادت لمزاولة العمل، وأنا كنت أعد منزلنا الجديد الذي سنبدأ فيه حياتنا معًا، وقد اخترت الانتقال لمدينتها والعمل في الفرع الجديد لدار النشر، والذي أصبحت فيه المدير العام بعد أشهرٍ قليلة.

تزوجنا وبدأنا أول رحلةٍ لنا معًا، وبعد سنة من الزواج، قررت زوجتي أن تحقق حلمها بإنشاء مؤسسة خيرية لمساعدة المرضى الذين يعانون من السرطان، تكاثفنا لجمع التبرعات، ولتوفير الدعم النفسي والطبي لهؤلاء الأشخاص الذين يحتاجون إلى بذل المزيد من الجهود للتغلب على مصاعب المرض، وبفضل جهودنا المشتركة مع دعم أسرتها وبعض الأصدقاء، نجحنا في بناء مركز رعاية متخصص لمرضى السرطان، حيث يتلقون العلاج اللازم والدعم الشامل، كما أنها قامت بتأليف كتابٍ خاصٍ لهم، كتبته أثناء فترة تلقيها هي للعلاج، ثم تماثلها للشفاء لاحقًا، وقد نال هذا الكتاب شهرةً واسعةً لدرجة أن بعض المستشفيات والملتقيات الطبية دعتها لإجراء ندوات، والقيام بورشات تحفيزية لمرضى السرطان.

اليوم وبعد خمس سنوات؛ كنت ألاعب طفلتي الصغيرة التي لم تكمل الثانية والنصف من عمرها، كنت متكئًا على أريكة مريحة بينما أحمل فتاتي الصغيرة بين ذراعي لأباغتها بدغدغة خفيفة، أسمع على إثرها ضحكاتٍ لطيفة وبريئة، فتجعل من قلبي ينتفض فرحًا ويتراقص ابتهاجًا لملامح صغيرتي، وبعد لعبٍ وملاطفة ضممتها إلى حضني برفق، ثم بدأت أربت على ظهرها، وأسرح يدي على شعرها الأسود القصير، أطلقت تنهيدة خفيفة، فقلت لها وكأنني أحاور شخصًا بالغًا وليس طفلةً صغيرة:

-بين ضلوع صدرك الصغير مهجةٌ يا قدس.

حالما ذكرت اسمها رفعت رأسها تجاهي، وأهدتني قبلةً صغيرةً على خدي، وكأنها فهمت ما قلته، وفي حقيقة الأمر استجابت لي عند ذكر اسمها المميز، والذي اخترته لها بنفسي لأذكر زوجتي بأصولها واعتزازها لأرض فلسطين الأبية، ابتسمت بحب وأردفت بهمس:

-هذه المهجة سيدخلها يومٌ ما حبٌ جميل، حبٌ لن تستطيعي التحكم فيه فهو كجريان الدم بين شرايينك الصغيرة، فإن تسلل يومًا سكر الحب إلى فؤادك اتركيه أمانةً عند الله، واسأليه أن يكون ذاك الحب حبًا حلالًا طيبًا، كحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

لأمنا عائشة والذي كان يقول لها: «حبي لك كعقدة في حبل.» فتضحك أمنا عائشة رضي الله عنها... ثم كلما مرت عليه سألته...

في تلك اللحظة كانت جنين واقفةً أمامي بأسدال الصلاة، نظرت إلي وإلى الجميلة النائمة، وأكملت الحديث متسائلة بهمسٍ أسمعه:

-«كيف حال العقدة يا رسول الله؟»

ابتسمت لها أنا الآخر وأجبت:

-وكما يقول حبيبنا المصطفى «كما هي»، فهي ستظل دومًا و أبدًا كما هي.

اقتربت جنين وجلست بجانبي قائلة:

-وهل ذبلت أوراق رسائل التوت يا عمر؟

تأملت مليًا ملامحها وأنا أتذكر ليلة عقد القران حينما أهديتها مذكراتي، اتسعت ابتسامتي أكثر وأجبت بصوت خافت كي لا أوقظ قدس:

-لم تذبل أوراق رسائل التوت بعد كل هذه السنين، ولن تذبل في الأيام والسنين القادمة، لأنها أوراقٌ خطت بأنامل مغمسةٌ في

الهيام والحلال، تكللت برحمةٍ ومودةٍ مباركة، واليوم ها هي تروى بثمرَّة جميلة تشهد على شغف حبنا السرمدي.

(5)

خيمياءُ الأرواَح

مقدمة

كلُّ روحٍ حافيةٍ تركض إلى شبيهها، وكأنها بعيدةٌ عن الوطن لكن قريبةٌ إلى الفؤاد، تزهر بعد كلِّ خريفٍ متساقطٍ وشتاءٍ قارس، فكيف لا وسحر الخيمياء يدثرها اعترافٌ بغمسة الحب.

أنار هاتفها مع هزةٍ خفيفةٍ؛ لوصول إشعار جديد، لم تعره اهتمامًا بسبب نومها الثقيل، إلى أن مرت نصف ساعةٍ من الاستيعاب، فمدت يدها نحو الهاتف الموضوع على طاولة صغيرة بجانب سريرها، فتحت أعينها المتعبة وقرأت:

«إني أخافُ أن يَمَسَّك عذابٌ من الرَّحمَن.»

مسحت على وجهها بانزعاجٍ وتثاؤب؛ لتقرأ رسالةً أرسلت قبلها بساعة، ولم تنتبه إليها:

«يا جُمان.. استنهضي همّتك و أيقظيها، هُزّيها هزًّا عنيفًا وقُومي زاحمي صفوف المجد واشحذِ العزائم، فالأمة تنتظرك، ترقُبك من بعيد.»

قامت من مكانها بعدما أنارت الغرفة، وبدأت تجيب على صاحبة الرسالة:

-أعتذريا آية، لم أقرأ الرسالة إلا الآن.. ألست غاضبةً مني؟

مرت دقيقتين دون رد لترسل مرَّة أخرى:

-يا آية! أين أنت؟ أعرف أنني أخطأت بسبب السهرلكنه من أجل إتمام البحث الخاص بموضوع التخرج، أعدك بأنني سألتزم أكثر.

مرت ساعتين وقد حلت السادسة والنصف، حينئذٍ صدح صوت أذان الفجر، همهمت الفتاة بانزعاجٍ؛ لترسل رسالةً أخرى:

-آية، مرت ساعتين منذ أن أرسلت لك رسائلي، أعرف بأنك دائما ما تكونين مستيقظة قبل الفجر بساعة؛ للصلاة ولمراجعة الورد القرآني، ردي علي من فضلك يا آية.

مضت ثلاث دقائق؛ ذهبت فيها جُمان لتتوضأ ثم عادت وأمسكت هاتفها لتكتب رسالةً أخيرة:

-سأذهب للصلاة وسأدعو لك لتأخذي ثواب الأجر معي، معادنا في العاشرة صباحًا بالمكتبة؛ في أمان الله.

ظلت تنظر للهاتف على أملٍ من أن تجيبها آية لكن دون رد، فذهبت لتصلي الفجر.. آية صديقة جُمان منذ أربع سنوات في آخر سنةٍ من المرحلة الثانوية، التقت بها في أول حصةٍ لهما والتي كانت لمادة التربية الإسلامية، وأكثر ما أعجب جُمان هو صوت آية حينما بدأت في تجويد بضع آياتٍ من سورة الأنعام، بينما أكثر آية هزت فؤادها الصغير منذ تلك التلاوة هو قوله تعالى:

{قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عظيم}.

فكانت هذه الآية بالضبط نقطة تحولٍ في حياتها، وصداقةٌ عظيمةٌ بدأت حينئذٍ، بعدما فتحت دردشة صغيرةً معها حول سؤالها عن كيف تعلمت التجويد، لتليها أسئلةٌ أخرى حول القرآن، إبداء الإعجاب بخمارها العفيف، ومن ثم إقناع جُمانة بارتداء الفضفاض من الفساتين إلى حفظ القرآن، وتعلم التجويد لاحقًا؛ أربع سنوات كانت كطفرةٍ جينيةٍ غيرت ملامح حياة جُمان التي تعجَّب منها أصدقاؤها، أقاربها، بل حتى أسرتها الصغيرة، ومع ذلك كانت لا تزال تتقاعس عن القيام لصلاة الفجر في الوقت المحدد.

"عقدة حياتك" هذا ما كانت تقوله آية في كل مرَّة بسبب علاقة جمانة بأحد الشباب، فكانت هذه الأخيرة غير مقتنعةٍ بكلامها عن علاقتها المحرمة معه، من حديثٍ وتبادل كلمات الغزل، من لقاءاتٍ متكررة، ومن أسطوانة **"سنتزوج بعدما أكمل الدراسة وأعمل"**، والتي يكررها كل شابّ ليس في نيته الزواج؛ وإنما من أجل تمضية الوقت، واقتنعت جُمان بعد معاناةٍ طويلة، أو بالأحرى اكتشاف حقيقة الشاب، خداعه، كذبه، وعلاقتهما التي كانت محرمة، ومغمورة بأحلام اليقظة الوردية.

كانت جُمانة في كل مرَّة تقسو بكلامها على آية رغم نصحها وموعظتها، لكن هذه الأخيرة دائمًا ما كانت تجيب بلينٍ وطيبةٍ، وتدعي لها بالهداية، وأن يرزقها الله الزوج الصالح، في كثيرٍ من اللحظات كانت

جُمانة تتأمل جمال آية في خمارها الفضفاض، خاصةً وأن ملامحها صهباء وعيونها ذات لونٍ بني فاتح، عكسها هي ذات البشرة البيضاء والملامح العادية، تتساءل كيف لهذا الجمال الرباني أن تخفيه تحت خمارٍ أسود لم تغير لونه يومًا؛ لكونه أحبُّ الألوان إليها، بينما كانت هي سابقًا ترتدي الضيق والقصير، وتسدل شعرها الطويل مع لمعة مساحيق التجميل، والآن أضحت اليوم فراشةً بحجابها الطويل، وفستانها الواسع بفضل الله ثم رفيقة دربها، والتي عزمت على إرضائها وإسعادها بهديةٍ بسيطةٍ، وكلماتٍ خفيفةٍ على فؤادها، مع وعدها بعدم التكاسل في صلاة الفجر مرَّة أخرى.

أدت صلاة الفجر ثم الصبح مع مراجعة وردها كما المعتاد، وعند الصباح لملمت حقيبتها الصغيرة مع بعض الكتب لتعيدها إلى المكتبة، ارتدت فستانًا رماديا مع حجابٍ في نفس اللون، وأعدت هديةً صغيرةً وضعتها في الحقيبة، كان عبارةً عن حجابٍ أسودٍ اشترته قبل أيام، لكنها لم ترتديه بعد، فارتأت أن تهديه لآية.

عند التاسعة صباحًا، ودعت جُمان والدتها وإخوتها الصغار بعد الإفطار، ثم توجهت لمنزل آية حتى تذهبا معًا إلى المكتبة؛ لإتمام مهام بحث التخرج، ومراجعة آخر المحاضرات، كان ما يزال أمامهما أسبوعين من أجل إتمام الاستعدادات الخاصة بهما، ثم تقديم البحث أمام اللجنة، خاصةً وأن بحث التخرج لمسلك الدراسات الإسلامية

يحتاج وقتًا من أجل جمع الوثائق، استمارات الاستجوابات، ثم باقي المعلومات، فضلًا عن تلخيص وتوثيق الكتب المحيطة بموضوع البحث.

وصلت إلى منزل آية الذي كان يبعد عن منزلها نصف ساعةٍ مشيًا على الأقدام، طرقت بخفةٍ لتفتح لها والدتها قائلةً ببشاشة:

-أهلًا وسهلًا جُمان.. تفضلي.

بادلتها التحية بابتسامة وقالت:

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بارك الله فيك يا خالة، كيف الحال؟

ردت عليها أم آية بابتسامتها المعتادة وأدخلتها، وجهت جُمان بصرها ناحية الهو والذي عادةً ما تجد فيه آية بانتظارها حين زيارتها لها، وقبل خروجها من بيتها، فاستدارت نحو والدة آية وقالت متسائلة:

-أين آية؟ هل لا تزال نائمة في هذا الوقت؟

-لا، ولكن ربما لا تزال تراجع وردها كما العادة.

ابتسمت جُمان ورافقت والدة آية ناحية غرفتها، طرقت الباب وفتحته لجُمان؛ لكي تدخل، ثم ذهبت لإكمال أشغالها.

اتسعت ابتسامتها وهي تدلف الغرفة لتُفاجئ بآية وهي جالسةً في أحد الأركان على سجادة الصلاة، ظهرها مستند على جانب سريرها الصغير وتمسك المصحف بيديها، كانت ترتدي عباءة الصلاة، ورأسها مطأطئٌ ناحية المصحف الذي تمسكه، اقتربت منها رفيقتها وهي تغبطها على هذه الجلسة التي تحفها الملائكة، جلست بجانبها، وهي تنادي عليها بصوتٍ خافتٍ كي لا تفزعها:

-آية.. حبيبتي..

مدت يدها ناحية يدي آية، لكنها صدمت من برودتهما لتقول بنبرةٍ قوية:

- آية، يا آية.. لما يديك باردتين؟ آية...

علا صوتها؛ لتدلف والدة آية الغرفة وهي مفزوعة:

-ما الذي حدث؟ آية، ما بك؟

ارتعشت أوصال جُمان وهي وتقول:

-ربما.. ربما هي متعبة...

ندهت عليها والدتها قائلةً بقلق:

-هيا يا آية، قومي إلى السرير حتى ترتاحي أكثر.

ما إن لمست والدتها يديها الباردتين، ثم حركتها قليلًا بعدما مسحت على وجهها حتى انهارت في البكاء صارخة:

-لا توجعي قلبي مثل والدك، آية.. آية.. استفيقي يا ابنتي...

ما إن انهالت تلك الكلمات على مسمع جُمان حتى ضاق صدرها، وتذكرت والد آية الذي توفي منذ سنتين ونصف، كانت دموعها هي الأخرى كشلالٍ منهمر، ووجهها محمرٌ من ذاك البكاء، أو بالأحرى من تلك الصدمة وهي في طور استيعابها.

ومع بكاء والدتها وصراخها، دخلت أخت آية الصغيرة بعدما فتحت الباب الذي كان يدقه الجيران بقوة، احتضنت أختها مع والدتها التي لم تكف عن الصراخ والبكاء على ابنتها، فقالت جُمان لبعض الجارات:

-لا تدخلوا الرجال إلى الغرفة.

التفت نحو أمها التي قالت لآية:

-آية حبيبتي، قومي لصلاة الضحى... آية استيقظي حتى تكملي الورد القرآني...

نظرت لها الخالة بحزن عميق وقالت:

-هي فقط متعبة، سنأخذها للمستشفى وستكون بخير...

قاطعتها جُمان بضمَّةٍ دافئة، وصوتٍ مخنوق:

-يا خالة اثبتي، فآية دومًا ما كانت تعلمنا الثبات في أوقات الحزن والابتلاء.

حركت الخالة رأسها باستيعاب؛ لتقول بصوت مبحوح:

-إنا لله و إنا إليه راجعون، إنا لله و إنا إليه راجعون...

كررها كل الحاضرين في الغرفة من الجيران، وحتى أخت آية التي لا تزال في الثامنة من عمرها، لكنها كانت بالفعل تدرك الكثير في هذه الحياة.

جُمانة نفسها في تلك اللحظة استغربت صبرها وهدوءها، بل حتى ثباتها في موقفٍ كهذا، وهي تدعو أقارب آية لا سيما والدتها إلى الصبر، واحتساب أجر الابتلاء في هذا الفقد الجلل؛ ليجول في خاطرها صوت آية التي قالت لها منذ أسابيع قليلة:

-أشعر بأنني سأموت في العشرينات يا جُمان، لكن أتمنى حسن الخاتمة، وأن يتوفاني الله وهو راضٍ عني.. يا الله! كيف هو الشعور لو قبِض روح إنسانٍ مؤمن وهو ساجد، يقرأ القرآن، أو بالكعبة

الشريفة حيث أطهر بقاع الأرض.. يا الله! سيكون ذلك يوم فرحي يا جُمان.

كانت ترد عليها جُمان بضيق كلما ذكرت الموت، وتدعو لها بطول العمر، لكنها أقدار مكتوبة وآجالٌ محددة، تذكرت كلمات أحد المواعظ الدينية عن الموت التي قدمتها آية خلال شهر رمضان الماضي:

«لو لبست إحداكن لباسًا حلوَ المظهر، وجاءك شخص يحبك جدًا، منهجه سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سيقول لك مبتهجًا: "لبستِ جديدًا، وعِشت حميدةً، ومتت شهيدة".

ولو كنت ستخرجين راكبةً في أي وسيلة نقل، فإنك تستفتحين ركوبك بالدعاء: "سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، و إنّا إلى ربنا لمنقلبون".

ثم لو مررت إلى جوار مقبرة ستقولين: "السلام عليكم أهل ديار المسلمين والمؤمنين، و إنا بكم لاحقون".

وقبل أن تنامي، عندما تغفو عيناك، تقولين: "اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها".

مولاك عزّوجل يا غالية يريدك مستعدة دائمًا لمغادرة هذه المحطة -محطة الحياة الدنيا- بأعمالك كيفما كانت، مستحضرةً

باستمرار أنها معبر، وأن الآخرة هي دار القرار، يربّيك الله سبحانه وتعالى على تقبُّل فكرة الموت بسلام، وعلى حب ذلك في سبيله لأنك ميّتةٌ، فلمَ إذاً لا تختاري مصيرًا نهايته الجنة لم لا تختاري الميتة الحسنة؟

دينك عندما يأمرك بأورادك وأذكارك يعينك على ألا تتفاجئ حين يحين موعد مغادرتك للدنيا، ألا تكوني ممن قيل فيهم:

{وَ اقتَرَبَ الوَعدُ الحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبصارُ الَّذينَ كَفَروا يا وَيلَنا قَد كُنّا في غَفلَةٍ مِن هذا، بَل كُنّا ظالِمينَ}، بل لتكوني ممن قيل فيهم:

{لا يَحزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكبَرُ وَتَتَلَقّاهُمُ المَلائِكَةُ هذا يَومُكُمُ الَّذي كُنتُم توعَدونَ}.

حافظوا على أورادكم، صلواتكم، وعباداتكم... واستعينوا بالله ولا تعجزوا، وادعُوا الله أن يمنّ عليكم وعلينا بميتة حلوة حسنة.

فإن غِبت يومًا، وغابت أخباري، فالدُّعاء وصية بيننا، وإن أتاكم خبر موتي ادعوا لي، وتصدقوا على روحي ولو بِشق تمرَّة، و أنا أسألكم إن لم تجدوني بينكم في الجنة فاسألوا عني لعلي ذكرتكم بِالله ولو لِمرَّة واحدة، فالنفس تميل لِلمعاصي، والقلب يحن لِلتوبة،

وبين هذا وذاك سيأتي الموت فجأة، إن كان لِقائي بِك يا الله قد اقترب فارزقني حُسن الخاتِمة.

"رَبِّ ابنِ لِي عندكَ بيتًا فِي الجنَّة واحشُرني مع من أحبَبَت من خَلقِك حيثُ الحبيبُ المُصطَفى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم".»

استفاقت جُمان من غفلتها بمستشفى قريب من بيت آية، وعلى صوت شابٍّ ثلاثيني أصهب البشرة يرتدي ملابس عسكرية، وقد خرج للتو من أحد الغرف رفقة طبيبة تقول له:

-إنا لله و إنا إليه راجعون، عظم الله أجركم يا سيدي.

صمتت الطبيبة قليلًا؛ لتسند أم آية رأس ذاك الشاب على صدرها وسألت بصوتٍ متعبٍ ومبحوح:

-هل توفيت فعلًا بسكتة قلبية؟

أومأت لها الطبيبة برأسها وأجابت:

-نعم، وتوفيت بالضبط منذ ست ساعات ونصف، إنه القضاء والقدر الذي كتبه لها الله.. تبدون أناسًا طيبين وتعرفون الدين جيدًا، لذا ما عليكم سوى الصبر والسلوان واحتساب أجر المصيبة على الله، أوراق الدفن يمكنكم استلامها في حجرة الاستقبال، عظم الله أجركم مرَّة أخرى.

ترددت جملة **"وتوفيت بالضبط منذ ست ساعات ونصف..."** على مسامعها؛ لتتذكر بأنها قد توفيت بعد دقائق معدودة من آخر رسالةٍ أرسلتها لها، فأجهشت في البكاء مرَّة أخرى وهي تردد في خاطرها:

{إني أخافُ أن يَمَسَّك عذابٌ من الرَّحمَن}.

دلفوا إلى حجرتها من أجل حملها لأحد المساجد القريبة حتى يتم تغسيلها، لم تكن جُمان تريد مفارقة صديقتها ولو للحظة واحدة، لدرجة أنها شاركت والدة آية والمغسلات في القيام بالغسل والتكفين، كانت بين كل لحظةٍ تمسك يديها وتقبلها برفقٍ وحب، إلى أن انتهى التغسيل وأتى موعد الصلاة عليها وبدأ الجنازة.

حين صلاة الجنازة كان هناك حشدٌ عظيم؛ كل الجيران، كبارًا وصغارًا، من يعرفها ومن لا يعرفها كانوا يبكون عليها، بعدما أنهوا الصلاة، وقادوا سير الدفن حتى المقبرة، وكأنها شخصٌ معروفٌ ذو مقامٍ كبير بين أهل هذه المدينة الطيبة، لكن صدقًا، فهي بأخلاقها، بعفتها، بخمارها، وعباداتها، معروفةٌ بين أهل السماء قبل الأرض؛ ليسخر لها جل جلاله هذه النفوس الطيبة من أجل الصلاة عليها، الدعاء لها، ومرافقة جنازتها إلى الدفن.

حين غلق سيارة نقل الأموات وقفت جُمان بين الجموع وتمتمت في خاطرها بابتسام، وكأنها تودعها للمرَّة الأخيرة:

-صدقتِ يا حبيبتي، توفاك الله و أنت في العشرينات، و أنت في زهرة الشباب؛ لتكوني عروسةً بالجنة إن شاء الله، مباركٌ عليك هذا المقام، وعسى أن يكون لقيانا معًا في الجنة قريب، أنت سعيدةٌ الآن، أليس كذلك؟

انهمرت دمعاتها بغزارة، وهي تسمع بكاء الناس من حولها حينما انطلق الموكب، فأردفت قائلة:

-وداعًا حبيبتي، أسأل الله أن يثبتك عند السؤال، أن يرحمك، ويغفرلك، ويجعلك أجمل عروسٍ في الجنة.

مضى ذلك اليوم وكأنه أطول يوم عاشته في حياتها، ففراق صديقتها في رمشة عينٍ وبدون سابق إنذارٍ قد أتعبها بقدر ما صدمها، لكنها كانت رابطةً على قلبها الصغير بكل صبرٍ وإيمان.

أتى والدا جُمان إلى العزاء، وبعد الانتهاء أخذو ابنتهم والتي ظهر عليها التعب والإرهاق من شدة الحزن والبكاء، وحالما وصلت هذه الأخيرة إلى البيت، دلفت إلى حجرتها مباشرةّ ناحية مكتبتها الصغيرة، رمت حقيبتها على السرير تحت أنظار والديها وبدأ تبحث وتبحث بين الكتب إلى أن أخذت واحدًا، توجهت ناحية سريرها وفتحته لتجد بعض صورهما معًا في بعض الحفلات، في الرحلات المدرسية، وفي خرجاتهم معًا وبعض اللحظات.

تأسف والداها لحالها، فتركاها ترتاح قليلًا وسط ذكرياتها مع رفيقتها، وعند انتصاف الليل كانت لا تزال بأسدال الصلاة؛ لتفتح مصحفًا ورديًا قد أهدته لها آية عندما علمت بهمتها للبدء في حفظ القرآن، كانت تقلب صفحات المصحف وهي تقرأ باطمئنانٍ إلى أن غفت في مجلسها ذاك.

مرت سويعاتٌ؛ لتنتفض بفزع وكأنها كانت داخل حلمٍ مزعج، مسحت على عيونها برفق وألقت نظرةً على ساعة المنبه، اقترب موعد صلاة الفجر، نهضت من مكانها لتتوضأ وعادت بين سجادتها، ولكن هذه المرَّة كانت تحمل هاتفها، أمسكته وفتحت رقم رفيقتها، لكن سرعان ما شلت حركة أناملها قبل أن تبعث لها رسالة؛ لإخبارها بأنها بالفعل مستيقظةٌ لأداء صلاة الفجر، فتذكرت بأنها توفيت بالأمس، وحضرت لمراسم العزاء والدفن.

أجهشت جمان بالبكاء في صمت، لكنها مسحت دموعها بعد دقائق وأرسلت في هاتفها رسالة:

«صباح الخير على روحك الجميلة، ها أنا ذا قد استيقظت لصلاة الفجر، وسأراجع وردي القرآني كما كنت تذكرينني، لكن هذه المرَّة أنا من سأذكرك وأدعو لك حينئذٍ بالرحمة والغفران..

أتتذكرين يا آية، عندما كنت تقولين لي بأن أجعل قربي من الله ملاذي وركن طمأنينتي، بأن أسجد وأطيل السجود لأن الله يعلم بحالي أكثر من نفسي حتى، فهو سبحانه سيذهب همي وكربتي، سينتزع كل ألم وضيق من فؤادي وسيجبرني جبرًا يليق بي... رحمك الله يا رفيقتي الطيبة، ولا تنسي معادنا في الجنة إن شاء الله.»

بعثت الرسالة بوجه بشوش، وهي تكفكف عن دمعاتها السخينة، وضعت هاتفها جانبًا واعتدلت من أجل الصلاة، وبعد الصلاة بدأت تدعو بالصبر والسلوان، وفي الآن ذاته ما زالت غير مستوعبة بمقدار صبرها، ولا بحبها الكبير لصديقتها آية.

مر أسبوعين وجُمان كانت تزور والدة آية لتسأل وتطمئن على حالها، إلى أن طلبت منها أن تدخل لغرفتها، وتستعير بعض كتبها الدينية.

سمحت لها الأم برحابة صدر، ودخلت جمُان إلى غرفة آية، وجدت الكتب التي كانت بحاجةٍ لها ولفت انتباهها مذكراتها، فتحتها ووجدت مجموعة من الخواطر والأدعية التي كانت آية تكتبها، وكان في صفحتها الأولى هذه العبارة:

"رب لا تتوفاني إلا و أنت راضٍ عني."

قلبت الصفحات وبدأت تقرأ بعض الخواطر والنصائح الدينية، ووجدت نصوصًا لبعض الذكريات التي عاشتها مع آية، حنينها لوالدها المتوفى، وبعض الأيام التي شعرت فيها بالفتور والانتكاس... وأخيرًا أمنيتها المتكررة وهي أن تموت في عبادة، بحسن الخاتمة؛ لتلقى الله بوجهٍ سليم، ضمت جُمان المذكرات لحضنها وبدأت تبكي، فتذكرت ابتسامة آية في آخر لقاءٍ لهما.

قدمت بحث التخرج باسمها واسم رفيقتها، ونالت الشهادة الجامعية بتفوق، بدأت العمل في أحد المعاهد لتدريس العلوم الجامعية، وختمت القرآن بعد وفاة آية بسنتين، كانت جُمان تدعو لرفيقتها في كل حينٍ وبعد كل صلاة، وتبرُّ والديها بكل ما تعنيه الكلمة، فقد كانت آية توصيها دائمًا ببر الوالدين، فضلًا على الانضباط في الصلاة، وقراءة وردٍ من القرآن الكريم ولو كان آيةً أو اثنتين.

بدأت العمل كمعلمة لغةٍ عربية، ومتخصصةٍ في الشريعة الإسلامية لأحد المدارس الابتدائية، شعرت بسعادةٍ عميقةٍ وهي تدرس الأطفال بكل حب، تسقيهم بعضًا من العلم النافع، وتزرع فيهم حب الدين والقرآن، وقد جعلتها هذه التجربة تنسى آلامها، وحزنها على رفيقتها.

مرت الأشهر مسرعةً وانقضت السنة الدراسية، ودعت أطفالها الصغار كما أحبت أن تسميهم بكل بهجة، خاصةً بعد إقامة حفلة نجاح صغيرةٍ لهم، وعندما انتهت العطلة الصيفية حلَّت المدارس أبوابها من جديد مستقبلةً الأبناء بكلِّ فرح، جلست فتاةٌ ذات العشر سنوات مع صديقاتها في القسم وهي تعرضُ عليهم خمارها الوردي الجديد، دلفت إليهم معلِّمتهم جُمان وحيَّتهم بحرارةٍ مع تحفيزاتٍ للاجتهاد بهذا الموسم الدراسي، وفي إطار التَّعارف وإشعال فتيلِ الهمَّة طلبت من كل تلميذةٍ أن تُحدِّثها عن حُلمها بالمستقبل، فبدأت كلُّ فتاةٍ تسرد على الجميع حلمها وما إن وصل الدَّورُ على الجميلة الصغيرة أجابت:

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا إسمي عائشة، وأريد أن أصبح مثل عائش عندما أكبرُ إن شاء الله.

استغرب الجميع وحتَّى جُمان من جوابها لتسألها بلُطف:

-لكن من هي عائش يا بُنيَّتي؟

ابتسمت الفتاة الصغيرة عائشة أكثر، وكأنَّها كانت مستعدةً لهذا السؤال وقالت:

-أريد أن أصبح مثل الفقيهة الزَّاهدة أُمِّنا عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، فقد آتاها الله العلم بالقرآن، وبالحلال والحرام

مثلما أعطاها التَّقوى والإيمان، كانت تملك القُدرة على رواية الحديث النَّبوي الشَّريف وتفسير ما استصعب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما امتازت بالبلاغة والفصاحة فكانت بحق أفقهَ النَّاس وأعلمهم، ومن سيرة حياتها علَّمتنا السَّعي من أجل تحصيل العلم النافع... لهذا أريد أن أكون مثل أُمي عائش رضي الله عنها في تعلُّمها للعلم الطَّيب وزهدِها فيه.

ابتسمت جُمان لتتذكر في تلك اللحظة رفيقتها آية، والتي كانت بين الفينة والأخرى تحكي لها قصة من قصص أمهات المؤمنين، وأكثر واحدة كانت تثير اهتمامها هي أمنا عائشة رضي الله عنها، انتبهت جُمان لشرودها فابتسمت برقة، تقدمت ناحية الفتاة وأهدتها قُبلةً فوق جبينها وقالت:

-بارك الله فيك حبيبتي، نِعمَ التَّربية والأخلاق في الاقتداء بأمِّنا عائشة رضي الله عنها.

مع طبيعة دراسة جُمان، وعملها بدأت تتردد مؤخرًا على أحد المكتبات، تقوم ببعض البحوث وتتدارس العلوم والتفسير بكتبٍ قيمة، وفي أحد المرات كانت تبحث عن مجلد، ووجدته بمشقة الأنفاس إلا أن المشكلة هو تواجده برفٍ علوي وقامتها القصيرة لا تتيح

لهـا الوصـول، لفـت يمنـةً ويسـرةً لتجـد شـابًا يحمـل كتابًـا ويبعـدها بمترين، اقتربت قليلًا وندهت بصوت خافت:

-أعتذريا سيدي.

التفـت بهـدوء ناحيتهـا بعـدما اغلـق الكتـاب الـذي كـان يطالعـه، وقال:

-نعم يا آنسة.

حمحمت بخجل وقالت:

-هل يمكنك أن تمد إلي هذا المجلد لسيرة الصحابة، إنه هناك لو سمحت.

تقـدم ناحيتهـا وأعطاهـا المجلـد الـذي تريـده، شـكرته بخفـة ٍوهي تنظـر للأسـفل بحيـاءٍ حتى لا تـدقق في ملامحـه، وذهـب دون أن يـرد، لتقول ببلاهةٍ، وبصوتٍ شبه مسموع وهي تضم المجلد في صدرها:

-إيكادولي.

في اللحظة عينها كاد أن يلتفت الشاب ناحيتها إلا أنها فرت هاربةً ناحيـة الطـابق السـفلي للمكتبـة، وقفـت عنـد أحـد الرفـف للكتـب

العلمية وهي تضع يدها ناحية فؤادها الذي ينبض بعنف، وقالت مؤنبةً نفسها:

-آهٍ منك يا جُمان، أين هو غض البصر؟ لا والأجمل التغزل به شرعًا وعلنًا، فرضًا لو سمعك، وكان يعرف معنى الكلمة؟

ضربت على رأسها بخفةٍ قائلةً:

-لن أعيدها مرَّة أخرى، عليك الثبات يا جُمان، وإلا ستقعين في ذنبٍ عظيم مرَّةً أخرى.

أكملت المسير ناحية قاعة المراجعة، وهي تحمل المجلد بين أيديها، تجاهد نفسها في كبت تلك الابتسامة الخجولة كلما تذكرت ذلك الموقف الغريب الذي صدر منها، وقبيل مغادرتها لفت انتباهها إعلانٌ حول بدء ورشات للقراءة والمناقشة حول العلاقات الإنسانية وارتباطها بالدين والأخلاق بعد يومين، فعزمت على الذهاب، ولا سيما أنها في إجازة قصيرة خلال الأسبوع.

في اليوم الموعود للورشة، دخلت جُمان المكتبة وتوجهت ناحية القاعة المعلومة، دلفت المكان وجلست على كرسي بجانب بعض البنات، وبعد بضع دقائق اكتظت القاعة بالأساتذة المشرفين على الورشة وبعض الأشخاص من عاملين بالمكتبة وطلبة جامعيين، بدأت المناقشة بافتتاحٍ قرآني؛ لتلاوة آياتٍ من الذكر الحكيم، تلاها أستاذٌ

جامعي ومشرف بالمكتبة عينها، ثم انطلقت فقرات الورشة الدينية، شعرت جُمان بجمال معاني بعض الكلمات القرآنية التي تم دراستها وتدبرها، وقبل ختم الجلسة تم فتح فقرة لطرح الأسئلة على الحضور، طرقت الأسئلة والأفكار عقل جُمان، وفي لحظةٍ ما رفعت يدها؛ لتجيب عن سؤال أحد المشرفين، كانت تتحدث بهدوءٍ ورزانة، وفي داخلها مشاعرٌ مضطربةٌ ومهتزةٌ، لا سيما عند رؤيتها لكل العيون التي ركزت عليها منذ بداية حديثها، وإجابتها عن مختلف الأسئلة بكل شمول.

خرج الجميع بعد انتهاء تلك الورشة، وأثناء توجه جُمان نحو ممر الخروج كان هناك صوتٌ رجولي ينادي عليها من قريب:

-يا آنسة!

التفت ناحية الصوت، ووجدت شابًا ينادي عليها، توقفت وأخفضت رأسها مجيبةً بابتسامة:

-نعم.

اقترب منها قائلًا:

-معذرة يا آنسة، لقد كان حديثك اليوم ومداخلاتك جيدة حول ورشة اليوم، وقد لفت انتباهي قولك بأن ماضي الشخص قد

يؤثر على الطرف الآخر، أقصد بذلك في الزواج وحتى على الأطفال، لكن إن كان الماضي فقط علاقة حبٍ من طرفٍ واحد دون أن يقوم الشخص بالاعتراف أو التلميح للطرف الثاني، هل هذا سيؤثر؟

كانت تستمع إليه وعلامات الدهشة والتفكير كست ملامحها، فهذه أول مرَّة يخاطبها شخص عن موضوعٍ كهذا، رفعت بصرها نحوه ووجدته يعيد شعره إلى الوراء بتوترٍ ملحوظ، وكأنه يفكر في كيفية صياغة كلامه مرَّة أخرى، ابتسمت بخجل وأجابته:

-حسنًا، الإسلام يعلمنا أن التوبة والتغيير من الأجزاء الأساسية من الدين، وفي الآن ذاته هو دين يسرٍ وليس عسر، فإذا كان الشخص قد تاب، تغيرت حياته بعد توبته النصوح، وأصبح يسعى للتقرب إلى الله، فإن الله يقبل التوبة ويغفر الذنوب، ومن المهم أن نكون على علمٍ بأن العلاقات غير الشرعية محرمة، وأن التفكير في شخص لا يكون بإرادتنا، و إنما أفعالنا هي من تحدد ما يلي ذلك التفكير، يعني ما سيؤول إليه.

كان يتأمل كل كلمةٍ تقولها، ليقول بعد ذلك:

-وإذا كان هذا الشخص الذي يفكر في فتاةٍ معينة منذ سنوات ولم يحادثها قط، لكنه يعتزم الزواج منها، هل هذا يعتبر ذنبًا؟ وهل سيؤثر عليه وعلى الفتاة؟

استغربت جُمان أكثر من كلماته، خاصةً عندما قال لها بأنه يفكر في فتاةٍ ما منذ سنوات، ويعتزم الزواج منها، فكرت قليلًا، وردت عليه بابتسامةٍ خجولة:

-ليس هناك شخصٌ بدون ماضٍ، ولو كان مثلًا التفكير أو الحديث مع فتاةٍ ما، ولكن طالما أن الماضي الذي تاب منه الشخص لن يؤثر على علاقته في المستقبل عليه بأن يدعو الله أن يغفر له، يستغفر في كل حين إن راوده التفكير، ويتعوذ بالله من همزات الشيطان والفتن بالتقوى والصلاح.

حمحم هو الآخر بخجل وقال:

-وإن تقدم للفتاة، هل يصح أن يبوح لها عن تفكيره فيها؟

تريثت قليلًا في إجابتها هذه المرَّة، لكنها قالت:

-حقيقةً درست الشريعة والفقه، لكنني لم أتعمق أكثر في أحكام الفتاوى خاصةً في مثل هذه المواضيع، لذا ليس لي علمٌ إن يصح الحديث أم لا، لكن بالنسبة لي أرى أن الحديث عن التفكير في تلك الفتاة عند خطبتها هو شيءٌ شخصي أنت من يقرره، فإن أردت أن تكون صادقًا ومفتوحًا مع شريك حياتك حول ماضيكما و أفعالكما، هذا سيعود إليكما معًا، وإلى قيمكما و إيمانكما، فقط

تـذكر دائمًـا أن الصـدق والثقـة همـا أسـاس أي علاقـةٍ ناجحـةٍ في الإسلام.

ابتسـم الشـاب شـاكرًا إياها ثم رحل مسـرعًا ناحيـة إدارة المكتبـة، وابتسـمت جُمـان ثـم غـادرت المكان، وفي خاطرهـا كانـت تـدعو لـذلك الشـاب بالسـعادة، بالسـكن، بالبركة، وبالعفة في زواجه، لكنها توقفت فجـأة وهي تحـاول أن تتـذكره؛ لأنهـا شـعرت بأنهـا قـد التقـت بـه سـابقًا ورأته في مكانٍ ما، حاولت أن تعصر أفكارها وذاكرتها جيدًا؛ لتقول وهي وتضرب بيدها على رأسها:

-يا إلهي، إنه ذاك الشاب الذي ساعدني في أخذ مجلد السيرة.

باشـرت سـيرها نحـو منزلها، وهي تتذكر كلمة **"إيكادولي"**، وفي الآن ذاتـه اسـتغربت من سـؤاله لهـا هي بالـذات، هـل سـمع ما قالتـه في ذلـك اليـوم؟ هـل هي الفتـاة المقصـودة بسـبب تلـك الكلمـة؟ أم أنهـا مجـرد صدفةٍ لا أكثر؟

نفضـتْ كـل الأفكـار والأسـئلة مـن رأسـها، وأكملـت مسـيرها وهي تتمتم بالاستغفار.

لمـدة ثـلاث أسـابيع متتاليـةٍ حضـرت لبقيـة الورشـات بالمكتبـة، شعرت بالحماس بسبب قدوم عددٍ أكبر من الحضور، وتقديم شـواهد مشاركة، لكنها كانت في كل مرَّة تبحث بين الحشد عنه؛ لم تكن تعرف

لماذا، أو حتى ما الذي ستقوله إن التقت به، لكن شيءٌ ما كان يحرك تفكيرها ناحيته، وبعد أيامٍ من آخر ورشةٍ أخبرتها والدتها بقدوم أسرة صديقتها آية من أجل رؤيةٍ شرعية، في البداية لم تستوعب الأمر؛ لأنها تعلم بأن آية لها أختٌ صغيرةٌ فقط، واعتقدت بأن شخصًا ما من عائلتها قد رآها في الجنازة أو شيئًا كهذا، وأراد التقدم لها عن طريق أسرة آية.

قامت جُمان تساعد والدتها، وتجهز معها مستلزمات الاستقبال، وبعد الانتهاء دلفت إلى غرفتها حيث وجدت فستانًا أزرقًا مع خمارٍ في الأبيض، ارتدته وجلست متوترةً في غرفتها، خاصةً بعد سماعها طرق الباب واستقبال والديها للضيوف، مرت بضع دقائق، لكنها كانت سنوات بالنسبة لجُمان، فهذه أول مرَّة يتقدم إليها شخص، وتوافق هي على الرؤية الشرعية، وبينما هي غارقةٌ في تفكيرها، توترها، وخجلها الذي جعلها تفرك يديها بغير انتباه، فاجأها طرقٌ خفيفٌ على باب غرفتها والذي فتح بسرعة؛ لتقول بفزعةٍ لوالدتها:

-ما الذي حدث يا أمي؟ هل هناك شيء؟

ابتسمت الأم وحضنتها بابتسامة بشوشة ثم قالت:

-بسم الله عليك يا ابنتي، هيا لرؤية زوجك المستقبلي.

ترددت الفتاة، فأردفت والدتها:

-لا بد من رؤيةٍ شرعية، بعدها يمكنك أن تصلي صلاة الاستخارة وتقرري الأمر، جميع البنات يمررن من هذه المرحلة ويشعرن بالخوف والقلق، وكثيرٍ من الحياء والخجل، لذا لا تقلقي سنكون أنا ووالدك بجانبك.

ابتسمت جُمان لوالدتها ورافقتها ناحية غرفة الضيوف، دخلت ورأسها مطأطئٌ من شدة الخجل، لكنها ألقت السلام بصوتٍ هادئ، رد الجميع التحية وجلست بين والدتها ووالدة صديقتها آية، بدأ الجميع في الدردشة وفي لحظةٍ ما تركوها مع الشاب، عادت لعادتها في فرك اليدين بتوتر؛ ليحمحم الشاب قائلًا:

-أهلا جُمان، كيف الحال؟

رفعت رأسها ناحية الصوت; لتصدم مما رأته، نفس الشاب ذو البشرة الصهباء الذي التقت به في المكتبة، ساعدها على نيل المجلد، ثم أوقفها بعد أول ورشةٍ ليسألها تلك الأسئلة، لكن بتلك العيون المغرورقة بالمشاعر تذكرته للمرَّة الثانية، عندما كان بالمستشفى ببدلته العسكرية، وهو مصدومٌ وحزينٌ إثر سماعه نبأ وفاة أخته.

تبسم لها وكأنه قرأ أفكارها، ورأى ما تذكرته في تلك اللحظة عندما رأته، فقال لها:

-أنا أخ آية رحمة الله عليها، ربما لم تتذكرينني عند الجنازة بسبب الصدمة، أو حتى في لقاءاتنا بالمكتبة، لكنني أتذكرك جيدًا منذ أن أصبحت صديقة أختي المقربة، وبالضبط في اللحظة التي بدأت فيها بالالتزام منذ سنوات.

ظلت جُمان صامتة، والأفكار تتضارب في رأسها ليفاجئها قائلًا:

-أنت الفتاة التي قصدتها في حديثي معك، وأظن أنه من حقي أن أقدم لك عرض الزواج على سنة الله ورسوله، وأطلب منك الصلاة والاستخارة، و أنا سأنتظر رأيك.

رفعت نفسه نحوه بخجلٍ، وتمتمت قائلةً بغير تفكير:

-لكنني لا أعرفك، وإن كنت أخ آية رحمها الله وغفر لها.

بادلها ابتسامة مشرقة وقال:

-أنا على يقين بأنك ستعرفينني أكثر في صلاة الاستخارة، لكن لا يوجد ضرر في أن أعرفك بنفسي؛ اسمي محمد و أنا الابن الأكبر، وحاليًا أنا رب الأسرة منذ وفاة والدي، أبلغ من العمر 28 سنة، تخرجت من جامعة القانون، وحاليًا أعمل كقائد عسكري بالجيش لذا عملي صعبٌ نوعًا ما مع مسؤولية تدريب الكتائب والمهام

العسكرية، لقائي بك في المكتبة سببه عشقي لقراءة الكتب والروايات، وهذا كل شيءٍ يا جُمان.

زاد من احمرار وجهها ذكره لاسمها، فتبسمت وسط دموعها وقالت:

-لم أكن أعلم بأن صُحبتي بآية ستكون سببًا في لقاءاتنا، وبالأخص في هذا اليوم.

نظر إليها وأجابها:

-إنه من جميل الأقدار التي كتبها الله لنا، و أتمنى ألا يؤثر ما سألتك عنه سابقًا في حياتنا القادمة، استودعت الله ما في فؤادي إلى حين انتظارردك، مع السلامة يا جُمان.

قام وغادر الغرفة وتركها شبه مندهشة من كلماته، لم يسألها عن نفسها حتى، وهي لم تكن تتخيل أبدًا أن يحدث هذا، وأن يكتب لهم الله سبحانه هذا اللقاء، فبعد انتهاء الزيارة أقامت جُمان بعد صلاة العشاء صلاة الاستخارة، وجلست تدعو الله في أن يختار لها ما فيه الخير لها، ويوفقها في هذه الخطوة.

مر أسبوعين بعد أن وافقت جُمان، وقررت الأسرتين في إقامة حفلٍ صغيرٍ لعقد الزواج، وأثناء الحفل بعد توقيع عقد القران نظر

محمد لجُمان التي كانت تجلس بجانبه بفستانٍ كرزي، وحجابٍ أبيضٍ أضفى عليها جمالًا وعفة، انتبهت لنظراته، واحمرت وجنتيها بخجلٍ أمام الجميع؛ ليهمس لها بحب:

-ظننت أن قلبي لم يُخلق للحب، ولن يجد شبيهه في هذه الدُّنيا، إلى أن وقع في غرام عفتك وحيائك الرَّقيق، وكأنك جئتِ لتكوني لي طوقَ نجاة، فكنت وستبقين تلك الفراشة التي تنثر سحرها، وتأخذ من الزُّهور جمالها ودلالها.

اتسعت مقلتيها وهي تتلألأ بالدموع حينما سمعت تلك الكلمات التي خرجت من شفتيه بنبرةٍ هادئةٍ حنون، تدل على صدق مشاعره التي كتمها لسنوات إلى أن أذن لها بالخروج في الحلال، استجمعت قوتها وهمست له بنفس الطريقة، مع ابتسامة خجولة:

-لا أعرف كيف سأجيبك عن هذه الكلمات يا محمد.

في هذه المرَّة، ضم كفيها المرتجفتين، وقال لها ضاحكًا:

-أظن أنه بإمكاني الآن أن أقول لك "إيكادولي" من غير أن أخشى تجاوز الحديث معك يا جُمان.

صدمةٌ أخرى ارتدت بين أضلعها الصغيرة، وتساءلت بسرعة:

-كيف؟ كيف عرفت؟

-بل كيف سمعتك في ذلك اليوم الذي لم تتذكريني فيه بأنني أخ آية، فهل تظنين حقًا بأنني أتردد على المكتبة دائمًا، ولم أقرأ كتابًا للدكتورة والكاتبة حنان محمود لاشين؟

أخفضت رأسها في خجلٍ شديد وهي تؤنب نفسها في سرها، لتستجمع بعدها شجاعتها وقالت:

-و أنا استودعت الله قلبي إلى أن يأتي من يضمُّه بين ضلوعه الدَّافئة، وحينما استخرت الله أيقنت فعلًا بأنه كتب لنا جميل اللقاء وحُسن النَّصيب، فهذا هو خيمياءُ الأرواح النَّقية، عندما تلتقي تجعل من شغف الحب وطنًا لا ينضبُ عن الودِّ والسَّكن.

(6)

وادِي الغَزَل

مقدمة

بين كتابة خواطر الحُب وقصائدِ الغزل، وادٌ مقدسيٌّ يحمل بين جنباته شوقٌ يبحثُ عن السَّكينة والدِّفء في شَبيهه.

بإحدى تقاطعات إشارات المرور كان ينتظر في سيارته إضاءة الضوء الأخضر ويستمع إلى برنامجٍ إذاعيٍ باهتمام، وفي تلك الأثناء تقدم طفلٌ في التاسعة من عمره، كان مهندمًا رغم ملابسه العادية ويحمل معه صينيةً صغيرةً من الحلوى، تقدم إلى نافذة هذا الرجل وقال له بابتسام:

-عمي هل تريد حلوى؟

بادله الرجل الابتسام وأجابه:

-لا يا بني شكرًا.

-أرجوك اشتريها فهي لذيذة.

تنهد الرجل وأطفأ مذياع السيارة قائلًا:

-إنني لا أحب الحلوى يا صغيري.

ناظره الطفل بعيونٍ لامعةٍ بالبراءة ثم قال بغير استسلام:

-إذن تذوقها من يد يتيم صنعتها له أخته الوحيدة.

-لو كنت فعلًا أحبها كنت سأشتريها.

مرت ثوانٍ وهو ينظر للطفل الذي ابتعد مطأطئ الرأس بخيبة، فلربما بسيارته الفاخرة وملابسه الرسمية اعتقد بأنه سيشتريها منه؛ أضاء الضوء الأخضر وانطلق بسيارته ليركنها قريبًا من ذاك التقاطع، ارتجل من السيارة ونادى على الطفل الذي كان يبتسم بخيبةٍ أخرى بعد ابتعاده عن سيارة أخرى لفشله في بيع قطعة حلوى من صينيته الصغيرة، ناظره الطفل بفرح عندما رآه وهو ينادي عليه؛ فبدأ يركض باتجاهه في سعادة.

أمسك الرجل كتف الطفل متسائلًا:

-ما اسمك يا صغير؟

-بدر.. اسمي هو بدر.

-هل تعيش مع أختك فقط؟

أومأ له الطفل بالرفض، وقال:

-كلا أعيش مع أختي وأمي المريضة.

-هل تدرس يا بدر؟

أجاب بحماس:

-نعم يا سيدي، كما أنني مجتهدٌ في الدراسة.

أخرج الرجل من جيبه قدرًا من المال وأعطاه إياه قائلًا:

-نـادني بعمـك أيـوب فقـط، ادرس جيـدًا، و انتبـه لأختـك ووالدتك.

ارتسمت ملامح السعادة على وجه بدر رغم رفض أيوب لأخذ قطعةٍ واحدةٍ من الحلوى، فركب هذا الأخير سيارته، وبدأ يفكر فيما مضى... انهمرت الذكريات أمام عينيه عندما كان طفلًا في مثل عمره، ومراهقًا يعاني من التنمر والسخرية جراء الوزن الزائد وشكله، كل المواقف المؤلمة تجاه أصدقائه وزملائه بالمدرسة، بل حتى من قبل أسرته التي كانت تحاول أن تمنعه من الطعام في كل مناسبةٍ أو رحلة، تقسو عليه بأكل الخضار وشرب السوائل فقط طيلة يومه، وتجبره على ممارسة الرياضة بشكلٍ عنيفٍ حتى كره الحلويات والمأكولات السريعة... كل هذا توالى أمامه في تلك اللحظة ليسرحَ بخياله في حزنٍ عميق وهو يقول في نفسه:

-فعلًا الشكل والجسم والصحة أهم من كل شيء.

وبنبرة ساخرة أردف:

-وعلى الأقل تخلصت من السخرية والتنمر.

تنهد بعمق؛ ليتفاجأ ببدر وبيديه الصغيرتين وهما تحتضنان وجهه ولحيته الخفيفة ليقول له:

-هل تعلم يا عمي أن ملامحك جميلةٌ وبشوشة؟

نظر إليه باستغراب لأنه أول شخص يجامله، فعلى الرغم من أنه طفل فبالتأكيد لن يعرف المجاملة أبدًا.

وضع أيوب يده اليسرى على يد بدر وأجابه:

-في الحقيقة لم يخبرني أحدٌ بمثل هذا.. رغم أنني خسرت الوزن وأصبحت رشيقًا إلا أنني لم أتلق مثل هذه الكلمات.

-و أنا قلت لك هكذا لأن أمي تقول لي دائمًا بأن الكلمة الطيبة صدقةٌ تسعد القلب، تحلي الروح، وتصعد إلى السماء مع جبال الحسنات.

استغرب أكثر من كلمات هذا الطفل وسأله:

-كيف هذا؟

-مثلًا عندما مدحتك يا عمي تهللت أساريروجهك وتغيرت من حزن وتفكيرإلى سعادة وسرور، كلمات كهذه لأي شخص تزيد ثقته

في نفسه وقد تغير مزاجه العكر والمتقلب، فضلًا على أن الكلمات الطيبة هي دواء وبلسم لكل الأمراض مهما كانت صعبة وخطيرة.

سحب الطفل يديه برفق وهو مبتسم من تعابير وجه أيوب الذي سأله مرَّة أخرى:

-ومن أخبرك بكل هذا يا صغير؟

-لم يخبرني أحد، لكن أمي مريضة بالسكر فعند آخر زيارة لها سمعت الطبيب وهو يقول بأن السكر نسبته عالية في الدم، لهذا عليها ألا تبكي، تحزن، أو تنفعل فهذا سيضر بصحتها أكثر وقد تموت مثل أبي، و أنا دائمًا ما أقول لها "أنت محظوظةٌ يا أمي دمك فيه السكر و أنت السكر والشهد نفسه"، فتبدأ بالضحك وتنسى المرض والهم، و أنا لا أحب رؤية أحد حزين كيلا يموت، وبما أننا سنكون سعداء علينا ننقل عدوى السعادة والحب للآخرين حتى نعيش جميعًا بخير.

ابتسم أيوب ومسح برفق على شعر بدر قائلًا:

-أتعرف أنت جميل، بل أجمل طفلٍ قابلته.

-أرأيت تأثير الكلام الجميل! هذا هو السبب الذي جعلك تنظر إلي نظرة سعادةٍ وجمال، رغم أنني طفلٌ صغير إلا أنني أحب الكلام كثيرًا ولاسيما عن السعادة والأمل والحب.

ذهب بدر بعد أن ودعه، ولكن لم تذهب سعادته وإنما ظل أريجها في قلب أيوب الذي لم تفارقه ابتسامته الجديدة، وليست تلك المتصنعة التي اعتادها بسبب ظروف العيش، وتحرك بسيارته ناحية دار الثقافة بنَفَسٍ منتعش وروحٍ متجددة.

أمام أحد الجامعات للدراسات والعلوم الإنسانية كانت تقف في أحد الزوايا وهي ترتب حجابها المتطاير بقوة الرياح، وفي انتظار قدوم صديقتها فتحت رواية "غزالة الأمير" وبدأت تكمل القراءة عند الفصل الأخير وهو الفصل السابع عشر، كانت تقلب الصفحات بلهفةٍ وكأنها تقرأ للمرَّة الأولى إلى أن صادفت اقتباسها المفضل:

«وقبل أن يُغادر التفت إليها وقال بنبرةٍ مُحِبَّة:

-أتيتُ إليكِ بقلبٍ له نبضٌ ساكن فأصبحتِ لرُوحي مُهجَةً تحتضنُ كلَّ المساكن، من يسكُنُ الوجدان والرُّوح بعبقِ حيائهِ كيف للفؤادِ أن ينساهُ يا خديجة.. أستودعك الله.»

ابتسمت القارئة برقةٍ وهي تقول بهمس:

-يا الله وكأنه يقصدني..

انتشلها من حبل خيالاتها تربيتةُ يدٍ سريعة من صديقتها التي أفزعتها فقالت:

-أهلا بخديجة العاشقة.. على الرغم أن شخصية روايتك المفضلة تشبهك في الاسم لا في الواقع.

نظرت إليها خديجة بعتاب قائلة:

-ألم أخبرك بأن تكفي عن إفزاعي يا ماريا؟ ثم الرواية فقط أحببت تفاصيلها و اقتباساتها وهذا...

قاطعتها ماريا قائلة:

-حسنًا.. حسنًا.. أخبريني هل ستذهبين فعلًا لتلك الورشة اليوم؟

-نعم، ستكون على الساعة الخامسة والنصف بدار الثقافة، هذا ما تم إعلانه على منصتهم عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

همهمت ماريا بانزعاج فقالت:

-هل من الضروري التواجد معك؟ تعلمين أنني أكره مثل هذه الأنشطة.

جدبتها خديجة من يدها وقالت مبتسمة:

-نعم ضروري ومؤكدٌ حضورك معي لأنك سندي في كل خطواتي فضلًا على أنك صديقتي الوحيدة و ابنة خالي العزيز.

بادلتها ماريا الابتسامة قائلة:

-حسنًا يا خديجة، أنت وكلامك المعسول لا يمكن مقاومته، لدي مشوارٌ صغيرٌ مع أمي لذا سنلتقي بعد ساعتين عند محل البقالة كما المعتاد.

أومأت لها خديجة بسعادة، وتوجها لمنزليهما الذي كان يفصل بينهما حيٌ وشارع.

ودعت ماريا خديجة عند ملتقى الشارع، وسارت الأخرى نحو بيتها، ارتمت خديجة على سريرها الصغير بعدما حيت والدتها وتناولت الغذاء معها، كانت مستلقيةً على ظهرها، وتناظر سقف الغرفة المزينة بأوراق الكتب والورود البلاستيكية، مكثت بضع دقائق لتقول في نفسها:

-الحمد الله، أخيرًا سأَنظَمُّ إلى ورشة الكتابة بعد عناءٍ طويل، لم أكتف يومًا من القراءة إلى أن وجدت شغفًا جديدًا بالكتابة،

فعلًا القراءة علمتني الكثير في هذه الحياة، بل درستني أساليب الحياة وتجاربها فغذَّت روحي بالعلم والمعرفة.

تنهدت خديجة بعمق وأردفت:

-في حقيقة الأمر كنت أهرب من الدنيا بالقراءة والعيش داخل أحداث الروايات والقصص، وللآن أكثر شيء أجيده هو القراءة أما الكتابة فلا زلت مبتدئة، لكن الفضل الكبير هو اختياري للدراسات العربية، فعلى الرغم من أنني لا أجيد الكتابة إلا أنني سأتعلم لأوصل أحاسيسي ورسائلي للعالم، سأعبّر بكتاباتي وسيكون قلمي بلسمًا للناس، أريد أن أكتب لأوصل للناس كل معنىً عميق في الحياة كإيماني بهذا الاقتباس: "الكتابة وسيلةٌ لنشر ما يجول بالخاطر، وفي الآن ذاته أداةٌ؛ لمداواة المجروح".

ابتسمت خديجة لكنها سرعان ما تذكرت أنه تبقى لها نصف ساعة لتلتقي بماريا، فتحت خزانة الملابس لتضع فستانها وحجابها الورديين بدرجات متفاوتة، وبعدما انتهت من ارتداء ملابسها وضعت مذكرةً وقلم حبرٍ مع هاتفها في حقيبتها ولم تنسَ روايتها المفضلة **"غزالة الأمير"**، ودعت والدتها بقُبلةٍ سريعة بعدما ذكرتها بمشوارها مع ماريا ثم خرجت مسرعةً نحو محل البقالة، ظلت ترن بهاتفها على ماريا التي أتت مسرعةً هي الأخرى وهي تقول في سخط:

-ما بك يا خديجة؟ بالكاد غيرت ملابسي منذ اتصالاتك التي لم تنته للآن.

أجابتها خديجة بعبوس:

-لقد تأخرنا والحافلة قد تنطلق مبكرًا.

ضحكت ماريا على عبوسها قائلة:

-لا لا.. ما يزال أمامنا ساعتين وربع قبل بدء ورشتك وتقولين تأخرنا، بل نحن سنصل قبل المنظمين يا خديجة.

-ولو، أنت تعلمين بأن هذه الورشة من أحلام حياتي، أريد تعلم الكتابة بسرعة وأن أصبح كاتبةً روائيةً وشاعرةً أصيلة بشعرها وقصائدها التليدة.

نظرت إليها ماريا بإعجاب وقالت منزعجة:

-إذن يا آنسة خديجة، عذرًا.. بل الكاتبة الروائية والشاعرة الفصيحة خديجة، لم الاستعجال؟ كنت أريد ارتداء المعطف الجديد ووضع تسريحة شعر جميلة لكن اضطررت لجمعه عشوائيًا كالكعكة، وكل هذا لأن كاتبتنا لا تملك ذرة صبر.

ربتت خديجة على كتفها وقالت:

-إذن.. سـأذهب لوحـدي وإن طلبـت مني الخـروج في نزهـة أو مشوار ستجدينني منشغلة.

تأففت ماريا بضيق وقالت:

-حسنًا.. حسنًا.. أنت تفوزين كالعادة هيا فالحافلة قد وصلت.

وصلت الفتاتين إلى دار الثقافة حيث مكان الورشة، كان المكان مكتظًا نسبيًا ويحتضن بعض اللوحات الفنية وصور بعض الكُتَّاب مع أعمالهم الأدبية، وكانت بعيون خديجة لمعة انبهار وإعجاب بالمكان الذي تزوره لأول مرَّة، تقدمت مع ماريا نحو الاستقبال فدلتهما المسؤولة نحو القاعة التي خُصِّصت للورشة، بينما كانت ماريا تنظر بملل إلى هذه الأجواء، وتستغرب سعادة الحمقاء التي تحتضن ذراعها بفرح عارم لتقول لها خديجة:

-المكان جميل جدا هنا.. أظن أن بجانب الورشة ستُقدم بعض أعمال الكُتَّاب.

أجابتها ماريا بملل:

-نعم، أرى ذلك.

أفلتت خديجة يدها متسائلة:

-ما هذا الجواب؟

-ما الذي سأقوله لك من غير هذا الجواب؟

نظرت خديجة إلى جماعة من البنات وهن متحمسات فقالت:

-قولي أي كلمة جميلة عوض الجواب البسيط، فقط كلمة لترسمي السعادة والبهجة كما أفعل معك ومع غيرك دائمًا، أنا لا أطالبك بذلك، و إنما لينعكس على كلينا، وعلى المحيط من حولنا.

استدارت خديجة لتدلف القاعة فاصطدمت بصدر عريض كادت من خلاله أن تقع لولا وجود ماريا وراءها، أمسكت بها ماريا التي صاحت غاضبة:

-ألا ترى أمامك يا سيد؟

أخفض الرجل رأسه معتذرًا:

-أنا آسف يا آنساتي.

هم بالمغادرة فاستوقفته ماريا يقولها:

-ماذا سنفعل بأسفك إن لم تكن ترى جيدًا؟

-ليس كذلك فقط دفعني صديقي ممازحًا، وإلا لم أكن سأصطدم بصديقتك، أنا آسف بحق.

نكزتها خديجة وقالت بخجل:

-لا عليكم ونحن أيضًا نعتذر.

طالعتها ماريا بدهشة ليقطع حوارهم شابّ آخر:

-كيف تعتذر لهم؟ و أنت.. ألا تعلمين مع من تتكلمين الآن؟

أجابته ماريا بانفعال:

-لا أعرف ولا أريد أن أعرف...

قاطعها الشاب قائلًا:

-إنه أيوب الرامي أشهر كاتب وروائي على صعيد المدينة، بل على المستوى الدولي، له عدة...

قاطعته ماريا منزعجة:

-شكرًا على التعريف، لكن ابتعدا من أمامنا لندخل القاعة.

سحبت ماريا خديجة، ودخلتا القاعة تحت أنظار الشابين بدهشة، جلست خديجة بالصف الثالث مع ماريا التي ما زالت غاضبة

مما وقع قبل دقائق، التفتت لترى جماعة من الناس ملتفين حول الشابين وبالضبط حول من اصطدمت به خديجة وهم يلتقطون معه الصور، زفرت بغضب لتحادثها خديجة:

-ماريا، لقد اصطدم بي وليس بك لذا ما كل هذا الغضب؟ أرى أنك غاضبة منذ بداية المشوار من الأساس.

لم تجبها ماريا فالتفتت لترى الناس حول ذاك الكاتب بعض العاملين والكُتاب الجدد في نقاش لبدء الورشة، أعادت بصرها لماريا التي بدأت تلعب في هاتفها بملل فقالت لها بهدوء:

-إنه الكاتب والروائي المشهور أيوب الرامي صاحب روايتي المفضلة "غزالة الأمير"، لم أتعرف عليه في البداية رغم شهرته الواسعة على مواقع التواصل الاجتماعي، ثم الخطأ خطئي أيضًا في عدم الانتباه.

أجابتها ماريا:

-وإن يكن.. حركاتٌ قليلة الأدب كهذه قد اعتدنا على رؤيتها في الجامعة.

-من الممكن فعلًا أنه لم يقصد ذلك، فقد كان مزاحًا و...

قاطعتها ماريا بعدما وضعت هاتفها جانبًا:

-لـم يقصـد، أتمـازحيني؟ آلاف الشـباب يفعلـون مثـل هـذه الحركات لغايات خبيثة، و أنت أدرى بذلك يا خديجة.

-لكن يظهر أنه شابٌّ محترم كما أنه اعتذر...

-خديجـة! ألأنـك قـرأت كتاباتـه وأعمالـه علمـتِ عـن أخلاقـه ومعدنـه الـداخلي؟ بـالله أفيقي مـن أحـلام قصـص الحـب والغـزل والغرام، لهذا أنا أكره الكتب والرو ايات.

تنهدت خديجة وبدأت الورشة، كانت البداية مع تقديم بعض الكُتَّاب الشباب الصَّاعدين، ومن بينهم أيوب والذي قدم كل واحد منهم أفكاره وفقراته المتنوعة، فعلمت خديجة وماريا من حديثه أنه اعتاد على حضور مثل هذه الورشات داخل البلاد وخارجها تزامنًا مع عمله كمهندس معماري، وهذا الذي أوضح للحاضرين أن الكتابة هواية وعادة يُمكن صقلها موازاةً مع الحياة العملية والشخصية.

انسجم الحضور مع الورشة، وكانت خديجة أكثرهم حماسًا، وفي آخر فقرات الورشة تم تقسيمهم إلى مجموعات لكتابة خاطرة قصيرة كتدريب، سارع الجميع في اختيار الفريق المناسب حسب كاتبه المفضل، ولأن الكاتب أيوب خرج ليجيب عن مكالمة هاتفية تبقى صديقه وشابين -محمد وعصام- مع خديجة وماريا، ليكتمل الفريق بانضمام أيوب إليهم.

كانت ماريا مستاءة بانضمامها لهذه المجموعة، ومع ذلك لم تبين الأمر بعدما رأت ملامح السعادة على وجه خديجة، جلس الستة في حلقة دائرية للعمل فقالت خديجة:

-أنا سعيدة جدًا بتواجدي معكم في نفس الفريق يا أستاذ أيوب، فضلًا على إعجابي الكبير بكتاباتك وروايتك.

رأى لمعة عيونها وهي ترفرف بسعادة فتذكر كلام الطفل بدر الذي قابله في الصباح، ابتسم لها قائلًا:

-بارك الله فيك يا آنسة، وإن شاء الله لما لا نراك كاتبةً صاعدةً بعملٍ متميز.

ازدادت سعادتها كلماته فأومأت له بخجل، بينما كانت ماريا تنظر لصديق أيوب بانزعاج إلى أن سألها:

-لِمَ تنظرين إلي بغضبٍ هكذا؟

أجابته ساخرة:

-أنا أنظر إليك! آه لقد نسيت، دفعت صديقك المحترم مع أنك لا ترى جيدًا.. فعلًا شباب اليوم محترمين جدًا.

-هل أنت مجنونة أم ماذا؟...

قاطعه أيوب قائلًا:

-يكفي يا ياسر.. ما بكم!؟

أجابه ياسر:

-ألم ترنظراتها النارية لي؟

ردت عليه ماريا مسرعة وبنبرة حانقة:

-تمنيتها لو كانت رصاصًا لنتخلص منك.

شدت خديجة على يد ماريا وقالت:

-حسنًا يا جماعة، مر الموقف واعتذر الطرفين المعنيين بالأمر... لذا رجاءً يا ماريا توقفي.

أردف أيوب بنبرة هادئة:

-نعتذر يا آنسة ماريا، فقط مزاح ياسر يؤدي للكوارث أحيانًا، اعذريه فعقله اعتاد على الهندسة المعمارية فقط، إنه يكره أجواء الكتب والكتابة لهذا يسلي نفسه بمزاحه الثقيل معي.

-هو أيضًا يكره هذه الأجواء؟

تساءلت خديجة ليسألها أيوب:

-أرى أنك لا تكرهينها من خلال حماسك إلا أن صديقتك...

أومأت له بابتسامة مؤكدة على تفكيره؛ ليقول بهمس:

-وأنا أقول لما أشعر بانفعالهما معًا وانجذابهما في نفس الوقت.

مد إليهم بعض الأوراق ثم نظر إليهم قائلًا:

-لنبدأ العمل يا شباب وإن لم تكونوا من محبي هذه الأجواء من الأساس.. سأعرض عليكم صورة، اكتبوا أحاسيسكم وما ترونه فيها، ابدؤوا بالملاحظة والتحليل ثم الكتابة مثلما ذكرنا في فقرات ورشة اليوم؛ خاطرة قصيرة تعبيرية عما في هذه الصورة.

فتح أيوب هاتفه وعرض عليهم صورة ظل جسدين متعانقين تحت القمر، بدأ الخمسة في تركيز على الصورة وكانت خديجة أكثرهم، فبعدما لاحظت ملامح الهدوء والارتياح لماريا سعدت بذلك وانهمكت في الكتابة، بدأ كل واحدٍ في تقديم كتاباته بينما خديجة لم تنته بعد، وكان أيوب يصحح لهم الأخطاء ويمدهم بالنصائح، مرت بضع دقائق لتحمل خديجة الورقة بسعادةٍ قائلة:

-لقد انتهيت.

نظرت من حولها ووجدت أن الكل قد انتهى وفي انتظارها بعدما أخذت أكثر من ثلث ساعة في الكتابة، حمحمت بخجل، ومدت إلى

أيوب الذي كان جالسًا أمامها، بدأ بالقراءة وهو مستغرب لدرجة أنه أعاد القراءة أكثر من ثلاث مرات قائلًا:

-آنسة خديجة.. أحقًا هذه أول مرَّة لك في الكتابة؟

نظرت إليه مستغربة وأومأت له برأسها قائلة بتردد:

-نعم، هل هناك شيءٌ خاطئ؟

مكث أيوب صامتًا فقال له صديقه:

-ما الذي كتبته؟ اقرأ لنا..

نظر إليها ليجدها تفرك يديها من الخجل، أعاد نظره إلى الورقة وبدأ يقرأ:

«تَعال نَقتسمُ القَمرونحظى بمسكِ اللَّيل تحت نُجوم السَّماء، إنَّني أحِنُّ وأحِنُّ و أنا بين ثنايا رُوحك يا سيِّد الحُب، فكيف السَّبيل لارتشف عشقك وأسرِ قلبك؟»

صفق الفريق وجميع الحاضرين لكونهم انتهوا بالفعل من الكتابة في انتظار انتهاء فريق الكاتب أيوب، وسمعوا إلقاءه لخاطرة خديجة، ليردف مسرعًا:

-بقلم الآنسة الكاتبة خديجة.

تلألأت عيون خديجة بالسعادة، واحمر وجهها من الخجل فقال لها:

-أرى أنني أصبحت من أول المعجبين بكتاباتك، خاطرتك جميلة ما شاء الله.. لكن كيف تكون أول كتابة لك بهذا الإبداع ودون أخطاء لغوية أو نحوية؟

استجمعت خديجة قوتها بعد خجلها وقالت:

-منذ صغري و أنا أحب القراءة وأحفظ الاقتباسات، كما أنني أحب تدوين الكلمات الفصيحة والجديدة على مرأى عيني، هذا إلى جانب أنني طالبة بالسنة الأخيرة في الدراسات العربية لذا لا أجد مشكلة مع قواعد اللغة أو النحو، ثم بفضل ورشتكم الرائعة حاولت تطبيق كل نصائحكم لهذا ربما حالفني الحظ في أول كتابة.

انتهت الورشة إلى أن يتجدد اللقاء في مثل هذا اليوم بالأسبوع المقبل، وعند خروج خديجة وماريا نادى أيوب على خديجة مبتسمًا رفقة ياسر:

-آنسة خديجة، عذرًا.. قلتِ بأنك قد قرأت بعضًا من كتبي ورو اياتي أليس كذلك؟

-بل قرأت كل إصداراتك وأحبها إلى قلبي هي رواية "غزالة الأمير".

فتحت حقيبتها بلهفة، ومدت له الرواية وهي مليئة بقصاصات الورق الملونة لتكون علامة على الاقتباسات، فتح أيوب الرواية باهتمام غريب، وأخرج بيده اليمنى قلم الحبر الأسود من جيب بدلته ليوقع عليها فقال لها:

-هل تحفظين اقتباسًا منها؟

اتسعت ابتسامتها كطفل صغير وقالت:

«وعند انتهاء حفل خطبتهما أهداها مذكراته قائلًا لها بحب أمام الجميع:

«وإني بسبعٍ وعشرين مسكًا من الغرام

قد وضعت شوق دربي إليك بين يديك،

سكنتِ الروح قبل الفؤاد وصبابة الهيام

ففي الحلال روحي التقت بعفة عينيك...».

نظر الاثنين إلى بعضهما البعض، وشيءٌ ما قد حرك داخل خديجة؛ لتفر مسرعةً جاذبةً ماريا من أمامهما، وتاركةً له روايتها وحتى الورقة التي كتبت فيها الخاطرة التي كانت لا تزال بحوزته، ابتسم ليقول له ياسر:

-لقد رحلت، تبدو فتاةً خجولة.. لكنها نست الرواية.

وضع أيوب الورقة بعد طيها في جيبه مع القلم وأجابه:

-ستعود.. وإن لم تعُد سأعيدها لها بنفسي.

مرت الأيام مسرعةً بعد أن تناست خديجة موقفها المحرج مع كاتبها المفضل، حيث ضلت تُؤنِّب نفسها ليومين على غبائها في ذكر اقتباسٍ صريحٍ بالحبِّ والغزل، لكنها أقنعت نفسها بأن الرواية بطبعها رومانسية لذا فالأمر عادي.

حضرت رفقة ماريا إلى الحصة الثانية إلى الورشة وقد بدأت هي الأخرى في الاعتياد، كانت خديجة تتهرب من أيوب ومن نظراته إلى أن التقيا في فريق التدريب، تعامل معها بكل برود، وهذا قد أحزنها إلى أن انتهى الجميع من العمل، وقبل المغادرة نادى عليها قائلًا:

-آنسة خديجة.

التفتت إليه ووجدته يمد إليها الرواية مبتسمًا، وما إن أمسكتها قال لها:

-شكرًا لك.. شكرًا لقراءتك لرو ايتي واهتمامك بها، ثم الاقتباسات هي نفسها التي علَّمتها في نسختي قبل طرحها للجمهور.

ابتسمت له فأردف قائلًا:

-إذن.. هل ستكملين حصص الورشة؟ تبقى أربع حصص حتى تكوني مستعدةً للعمل ككاتبةٍ بإذن الله.

قالت له بصوت خافت:

-سأفعل إن شاء الله، مع السلامة، وشكرًا لك على توقيعها وإعادتها لي.

ذهبت مع ماريا التي كانت مع ياسر في حديثٍ شيق بعيدًا عنهما؛ سارت الأيام بروتينٍ معتاد وحماس خديجة يزداد مع التعلم والتدريب، خاصةً وأنها عزمت على كتابة أول رواية بعد انتهائها من الورشة.

كانت آخر حصةٍ في الورشة حيث خديجة مندمجة في الشرح بكل حواسها، وتكتب في مذكراتها كل المعلومات، بينما على بعد خمس كراسي كان أيوب ينظر إليها وهو في عالمٍ موازٍ لأفكاره وللورشة القائمة، وعند التدريب سألته بعدما أنهت مهمتها:

-هل تسمح لي يا أستاذ أيوب بسؤال؟

نظر إليها وقال:

-نعم تفضلي.

-هل ستكتب رو اية جديدة؟

ابتسم لها وكأنه كان مستعدًا لمثل هذا السؤال فأجابها:

-نعم، بالفعل قد بدأت في كتابتها.

وجد عيونها تلمع بسعادةٍ وهي تسأله:

-أحقًا.. إذن عما تتحدث؟

صمت ليفكر قليلًا ثم قال:

-سأتركها مفاجأة.

من شدة الحماس نطقت:

-أرجوك أخبرني.

- وادي الغزل.

لم تشعر بحماسها الذي ارتفع لتقول:

-ستكتبها يا أيوب! وأخيرًا ستكتبها، أخيرًا كنت أنتظر هذه القصة في أن تصبح رواية.. أنا متحمسة، أنا...

انقطع صوتها بعدما أدركت أن حماسها قد رفع كُلفة الاحترام، ومناداته باسمه مجردًا فاعتذرت قائلةً بخجل:

-أنا آسفة على حماسي أستاذ أيوب، أنا لم أقصد...

قاطعها مبتسمًا:

-لا عليك.

نظر كلٌ من ياسر وماريا إليهما لتقول هذه الأخيرة بتعجب:

-هل تعرفين أحداث الرواية يا خديجة أم ماذا؟

نظرت إليها خديجة وأجابتها قائلة:

-تقريبًا، فالأستاذ أيوب منذ أول حصة لنا في الورشة كان ينشر خواطر قصيرة عن حبيبين باسم "وادي الغزل"، فخمنت أنه بصدد كتابة روايةٍ جديدةٍ حتى أن آخر إصدار له كان منذ تسعة أشهر ونصف.

ابتسم أيوب لها وقال مؤكدًا:

-بالفعل أيتها الكاتبة المحققة، فقط فكرةٌ راودتني عن اثنين التقيا صدفةً في حدث خاصٍ بالعمل، لكن الشاب أُعجب بالفتاة سرًا لتبدأ قصة الحب، وتتعمق أواصرها بعد تكرر الصدف في لقاءاتهم.

صفقت خديجة وتبعها الحاضرين في التصفيق ليردف قائلًا:

-لكن أحداث الرواية ما زالت متشعبة كما أن لقاءهم الفعلي لبداية حبهما سيكون تقليديًا، وفي نفس الوقت حب الشاب يمثلني في الواقع.. هل أعجبتك الفكرة يا آنسة خديجة؟

أومأت له برأسها في خجل وقالت:

-نعم جميل لا سيما إن صان الشاب فؤاده إلى أن يلتقي بها في الحلال كما فعل أمير في روايتك السابقة "غزالة الأمير".

أمال أيوب رأسه بتفكير، وقد ترجم الأمر إلى تطبيقه في الواقع وليس في الكتابة وحسب، ابتسم لها وانسحب ليكمل مع الكُتاب والعاملين بدار الثقافة الورشة، وقد تم تقرير الأسبوع المقبل كآخر لقاءٍ سيضم حفلةً لتوزيع الشواهد على المشاركين.

عادت إلى بيتها ببهجةٍ غير اعتيادية وهي تفكر في أحداث اليوم، وبعد صلاة العشاء جلست في مكتبها مع كومة من الأوراق، وهي تخطط

وترسم لأحداث أول عمل، وبعد الانتهاء حملت هاتفها؛ لتدخل إلى صفحته الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، وتقرأ منشورًا جديدًا له، أصبحت مدمنةً على قراءة منشوراته خاصةً تلك التي حول أساليب الكتابة، مرت بضع دقائق في انتظار منشورٍ جديد لكن خاب ظنها بعدما جاوزت الساعة منتصف الليل، بالعادة يكون آخر منشور عند التاسعة والنصف بينما آخر منشور نشره اليوم كان عند السادسة والنصف، أي عند انتهاء الورشة مباشرة.

وضعت هاتفها جانبًا، وبدأت تلملم الأوراق إلى أن أضاء هاتفها بوصول إشعارٍ جديد، حملته بابتسامةٍ بعدما رأت أنه منشورٌ جديدٌ من الكاتب أيوب الرامي، فكانت ابتسامتها تتسع كلما انغمست في قراءة تلك الأسطر:

«التقيتها صُدفةً أثناء بحثي عن جزءٍ كان ضائعًا مني، تقاسمنا بضعَ كلماتٍ ثمَّ انفصلنا، بينما روحها لم تغادر مَبسمي وشِغاف قلبي.. عذرًا فقد سرقته مني حتَّى هُمتُ في حبِّها المُستكين بلا توقُّف، فقد ظننت يومًا أن فؤادي ونبضه لم يُخلق للحب أو للوقوعِ بين أنامل الهُيام؛ وها أنا المُتيَّمُ بمُهجةٍ عفيفةٍ وبصبابةٍ أرتجيها مباركةً في الحلال.»

وضعت يدها على فمها لتكتم سعادتها من فرط روعة التعبير والمفردات، لم ترد على المنشور بأي تعليق كالعادة فضميرها ما زال يؤنبها على ذاك الاقتباس، فما بالها بكلمة، ولو كانت مدحًا أو تشجيعًا لكتاباته، انهالت التعليقات بعبارات المجاملة والإشادة بكتابه إلى أن أرفق بعد دقائق بتعليق مثبت **"دعو اتكم لي"**، تيقن الجميع ومن بينهم خديجة أنه بصدد إكمال الكتابة، والتقدم لهذه الحسناء التي سلبت عقله وفؤاده، بل حتى روحه، لتجعله يكتب عنها خواطر الغزل بشكلٍ علني ليصل إلى إعلانه بقدوم عمل روائي جديد من أجل حسنائه.

أطفأت هاتفها بسعادة وهي تُغبطُ هذه التي أسَرَت قلب كاتبها المفضل، لطالما أحبت خياله وإبداعه اللامتناهي، ولا سيما في كتابة خواطر الحب والغزل، يكتب بمشاعره وأحاسيسه ليصف الحب الحقيقي المغلف بالدين والحلال، فعلى الرغم من أنه إنسانٌ عادي بين الالتزام والوسطية إلا أنه محافظٌ على الأخلاق وأصول الدين.

تنهدت بعمق وهي تقول في نفسها:

-جميلٌ هو هذا الحب الذي جعله بمكنون صدره إلى أن يخرجه في الحلال، وكأنه لملم كل التفاصيل الرقيقة والمرهفة منه ليقدمه لها على طبقٍ من ذهب.

مرت الأيام وقد تصدر الكاتب أيوب الرامي العناوين الأولى من على مواقع التواصل الاجتماعي، فالكل متلهفٌ لمعرفة حسناء الكاتب والروائي المشهور، كان حفل الشهادات على قدم وساق بينما سكنت السعادة فؤاد خديجة وهي تنتظر بدء الحفل.

كانت الأجواء بهيجة بحضور الكتاب وبعض الصحفيين لتوثيق الحدث، مرت سويعاتٌ ليبدأ الحفل بتوزيع الشهادات، وبعض الجوائز الرمزية للمتميزين بالورشة والتي كانت خديجة من بينهم، كانت تقف على المنصة بفستانها الأزرق مع حجابٍ أبيضٍ وهي تبدو كفراشةٍ خفيفةٍ أنيقة، قدم لها أحد المسؤولين مع الكاتب أيوب الجائزة مع التقاط بعض الصور، كانت فرحتها وابتسامتها الواسعة كطفلةٍ صغيرةٍ وهي تحتضن الحلوى، بينما كانت عيون الهائم بها تراقبها بحبٍ من بعيد.

شكرت خديجة كلًا من المسؤول وأيوب؛ لتنزل من المنصة وتقاسم فرحتها مع ماريا، لكن ما إن شارف الحفل على الانتهاء حتى تقدم أحد الشباب نحوها.

إنه محمد الذي كان معها بالفريق قد عرض عليها الزواج أمام ذاك الجمع، ومن شدة ارتباكها احمر وجهها، ولم تجبه فاكتفت بابتسامةٍ خجولة، في الثانية عينها التقت نظراتها مع أيوب وهو يقف

جانبًا مع صديقه ياسر وأحد المسؤولين، انتهت أخيرًا لحلته الأنيقة والتي كانت مختلفةً قليلًا عما قبل، بادلها الابتسامة بأخرى لم تعهدها منه من قبل، وكأنها ابتسامة خيبةٍ وانكسار، أخفضت رأسها بعدما اختفت ابتسامتها لملامحه الهادئة لكن حينما أعادت بصرها لم تجده، اختفى بسرعة البرق، وتلك كانت آخر مرَّة تراه فيها، أو بالأحرى آخر ظهورٍ له على الواقع وحتى على مواقع التواصل الاجتماعي بعد كتابته لمنشورٍ صرَّح فيه بأنه قد قرر اعتزال الكتابة فجأة.

دام على اختفائه أكثر من شهر دون أن يعلم أحدٌ سبب أو مكان اختفائه المفاجئ، ولا حتى قرار اعتزاله، بينما ترددت خديجة لأيام قبل أن تراسله لكن لم يكُن هناك ردٌ منه، وهذا ما زاد من حزنها فضلًا عن رحيله من الساحة الأدبية... مرت الشهور وكانت خديجة قد نشرت بالفعل بعضًا من كتابتها وخواطرها على مواقع التواصل الاجتماعي، بدأت تمشي على خُطى الكُتَّاب الصاعدين في الشهرة؛ لتنشر أول رواية لها تزامنًا مع المعرض الدولي للكتاب.

كانت سعيدةً بكم التشجيعات وكلمات الإطراء على عملها الأدبي، وقد أُقيم لها حفلة توقيع لروايتها حضر فيه أهلها وأصدقائها مع بعض المعجبين الذين ازدادوا مع شهرتها، لكن في ذلك الوقت كانت تبحث عنه وتتجول في الأروقة بحثًا عن إصدار رواية **"وادي الغزل"**، بينما كانت تتمنى أن يكون أيوب فعلًا قد تركها مفاجأة عوض قرار

الاعتزال، لكن خاب ظنها عندما لم تجد أي إصدارٍ جديدٍ له، كانت تقف أمام دار النشر التي نشرت آخر روايةٍ له، وهي الأحب إلى قلبها **"غزالة الأمير"**، تتمعن كَمَّ المبيعات رغم قرار اختفائه واعتزاله من الميدان؛ ليُباغتها من وراءها طلبٌ من أحد المعجبين:

-أحببت رواياتك يا آنسة خديجة، فهل يمكنني الحصول على توقيعٍ منك؟

انتبهت للصوت الذي اعتادت أن تميزه بين ألوف الناس، فالتفتت وقالت بصدمة:

-أستاذ أيوب!

حرك بسبابته على فمه دلالةً على الصمت؛ لكيلا تجذب أنظار الناس أو حتى الصحافة، سارت معه بفرحٍ عارم وهي تتأمل قامته وجسمه الرياضي من ورائه، وملامحه التي تغيرت وأضْحَتْ متعبة، بينما في خاطرها ألف سؤالٍ وسؤال، تبعته إلى الخارج حيث توجد حديقةٌ تحيط المكان الذي كان فارغًا نسبيًا من البشر وسألته بلهفة:

-كيف حالك أستاذ أيوب؟ أين اختفيت، ولماذا؟ وكيف اتخذت قرار الاعتزال فجأة؟ أنت لِمَ...؟

قاطعها مبتسمًا:

-نادني بأيوب فقط يا خديجة، ثم كيف سأجيب على عشرات الأسئلة دفعةً واحدة؟

أخفضت رأسها بخجل وأردف:

-أنا بخير.

نظرت إليه وهي تنتظر مزيدًا من الكلمات، أو بالأحرى كانت مُتعطِّشةً لحديثه، ومعرفة أخباره أكثر، فقالت:

-الحمد لله، لكن أين اختفيت طوال هذه الفترة؟

تأمل زرقة السماء الصافية وقال:

-سافرت.

-من أجل العمل؟

لم يزحزح نظره عن السماء، وأجابها مبتسمًا:

-بل لأجل نفسي.

طالعت تفاصيله وقسمات وجهه المتعبة لتسأله بحزن:

-لماذا؟ ولِمَ لم تخبر أحدًا؟

تنهد وكأنه يخرج ما بجُعبته من ألم مجيبًا:

-أردت الرحيل فقط، كنت أشعر بالاختناق، بالاكتئاب، وبالانكسار... لم أخبر أحدًا عن قرار الرحيل ناهيك عن الاعتزال.

خرجت الكلمات انسيابيًا من شفتيه، وكأنه يحاول إخماد الحريق الذي بقلبه، مرت بضع ثوانٍ من الصمت لتقول له مترددة:

-هل كل هذا من أجل روايتك "وادي الغزل"؟ هل تركتك، أم رفضتك من الأساس؟

لم يتجرأ على النظر نحوها أو حتى بالإجابة؛ لتردف قائلة:

-إنها اختيارات الله لنا، ولا اعتراض على قضاء الله وقدره، لعله خير.. ولعل رزقك آتٍ لا محالة، أنسيت ما كنت تكتبه في رواياتك؟ أنسيت حب أمير لخديجة في "غزالة الأمير"؟ ذلك الحب الذي جعل من خديجة غزالته في الحلال بعد عناءٍ طويل، أنت...

قاطعها بعدما شعر بالمرارة داخله:

-يكفي يا خديجة، فالكتابة أفقدتني صوابي.. كنت أكتب من أجل لا شيء، وبعدما وجدت ذاك اللا شيء أصابني بالمواجع، حتى جرحني الحبر وأدماني القلم من عبارات الحب والغزل الخيالية، جربت الحب لوحدي دون أن تراه هي، حاولت أن أعيش من جديد

بعد نهوضي من انكساراتي وآلامي الماضية، كانت شفائي وبلسمي مع الكتابة لكنني استسلمت، وتخليت عن كل شيء، رميت حبي لها فهو من الأساس خاطئ، إنها مجرد قصصٍ وروايا تٍ على الورق، ولا تَمُتُّ بأي صلةٍ عن الواقع.

أجابته وهي غاضبة:

-أنت لست أيوب الذي كنت أعرف، كيف أمكنك القول بشيءٍ من هذا القبيل، وأنت من كنت تدافع عن الحب، ولا سيما الحب العفيف؟ الحب الحلال يا أيوب؟!

-سأسافر غدًا، أتيت لأودعك ثم...

صمت قليلًا، وأردف:

-ولأُبارك لك الخطوبة، ونشر الرواية، وداعًا يا خديجة.

كان يحمل في يده روايتها؛ لتسحبها منه غاضبة بعدما جاوزها بخطوتين، اندهش مما فعلته؛ لتصيح في وجهه غاضبة دون أن تعي كلماته خلال تلك اللحظة:

-لا أكاد أصدق بأنني أمام كاتبٍ عظيمٍ انهزم لمجرد أول محاولة حب.

التفت دون أن يعقب على كلامها وقال مكسورًا:

-أتمنى لك السعادة يا خديجة.

اختفى من أنظارها؛ لتميل برأسها في حزن لغلاف الرواية، فتحت صفحاتها؛ لتجد بعض العلامات بقلم الرصاص على الاقتباسات، لكنها وجدت ورقةً مطوية، استغربت وفتحتها بسرعة، وأخذت تقرأ بصدمة:

«قد سَلَبتني حسنائي ذات الحِجاب بعفَّتها، بحيائِها، وبطُهرها فُؤادي، فما كان للحزن أن يقسو على حبٍّ كان في أوجِ شَرارته، إن باحَ لكِ القلبُ بأريجٍ من الغرام كيف لنزيفِ رُوحي أو آلام الجُروح أن تستغيث، إنّي أغارُعليك من عُيونِ النَّاظرين، وما بين أضلُعي يبتغي قُربَكِ في شوقٍ وإن كان من العَابرين.

أيوب الرامي»

كانت الخاطرة مكتوبةً تحت أول خاطرة كتبتها مع تاريخ محدد، تمعنته مليًا لتتذكر بأنه تاريخ حفلة تقديم الشهادات والجوائز بعد انتهاء الورشة، شعرت بارتجافة أوصالها لتتدارك الزمان بركضها ناحية موقف السيارات، أخذت تبحث عنه وعن سيارته إلى أن وجدته

قد ركبها بالفعل منذ لحظات، توجهت بأقصى قوتها تُجاهه ففاجأته بوقوفها وهي تطرق زجاج السيارة بقوة، لم يكن عازمًا على الترجل من السيارة إلا أن دموعها ألَانَت فؤاده، خرج مطأطئ الرأس لتضربه في صدره قائلةً ببكاء:

-لِمَ لمْ تخبرني من قبل؟ لم لمْ تقل بأنني سبب رحيلك وعذابك؟ ... لِم لمْ تقل فقط بأنني تلك الحسناء التي كنت تكتبُ لها يوميًا؟

توتر وارتبك من كلامها رغم أنه لم ينظر إليها، واكتفى بصمته لتردف الأخرى:

-من أخبرك بأنني خُطِبت؟ أجبني يا أيوب..

نظر إليها بعدم فهم؛ ليقول:

-ألم تُخطبي لمحمد بعد أن تقدم لك في الحفل؟ وهذا الخاتم...

علت شهقاتها فأجابته:

-لقد رفضته.. لقد رفضته فنحن غير متناسبين، فقط اضطر ابي لأنه أول شخص يتقدم لي وأمام كل الناس، لم أُخطب له ولا لغيره.

-والخاتم؟

-إنه لماريا، قد أسقطته هذا الصباح في غرفتي، فارتديته لأتذكره وأعيده إليها عند قدومها هنا.

مسح على شعره، ولم يدرك موقفه بعد بينما احمر وجه خديجة وأنفها من ذاك البكاء والانفعال، مرت دقائقٌ من الصمت والتوتر والخجل في الآن عينه بعد اعترافات اليوم لتخترقها كلمةٌ منه:

-أحبك.

ارتبكت خديجة مع ابتسامةٍ خجولةٍ كالعادة؛ ليسحبها وراءه داخل المعرض حيث والديها اللذان كانا يبحثان عنها.

والآن قد مرت بضعة أشهر ليُطرح العمل الروائي الخامس للكاتب أيوب الرامي أو بالأحرى قصة عشقه الحديدي لحسنائه العفيفة؛ **"وادي الغزل"** قد أعاد شغاف الأفئدة من جديد، لكن في هذه المرَّة بين روحين اثنين تحت رداء حبٍ حلال.

تمّت بحمد الله، والعطاء مستمر...

المحتويات

إهداءات.. 6

ملحوظات.. 10

المِصباحُ في زُجاجَة 11

أُحجِية الفُسيفِسَاء... 46

بوحُ أسيرة الحُب.. 83

رَسائلُ التُّوت.. 107

خيمياءُ الأروَاح 137

وادِي الغَزَل 168

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

أريجٌ من وِد

"أريجٌ من وِد" ليست مجرَّد قصص... بل أنفاسُ قلوبٍ آمنت، ونبضُ أرواحٍ تعلَّقت بربِّ السَّماء، وأبَت أن تُفرِّط في طُهرها وعفَّتها مهما ضجَّت الدُّنيا بالفتن والإكراهات.

في هذه الصَّفحات، نقرأُ عن الحُب حين يكُون عِبادة، وعن الصَّبر حين يُزهر جَبرًا، نتأملُ نور العِفَّة في الثَّبات، والإيمان القوي أمام الابتلاءات، نتقاسم حكاياتٍ تنبضُ بحبِّ الوطنِ والتُّراث، وأخرى توشِّحها ظِلالُ الشَّوقِ للشَّهادة، الحنينُ لنعيمِ الجنَّة، وعناقُ الصُّحبةِ الصَّالحةِ في كلِّ دُعاء.

شاباتٌ وشبَّان نُبلاء في مشاعِرهم، عفيفُون في اختياراتِهم، وصادقُون في وُعودِهم، جاهدُوا الهوى والجور، وكتبوا على صفحات الحياة أنَّ الطُّهرَ قوَّة، أنَّ المحبَّة رِزق، وأنَّ من سارَ لله لم يَضل الصِّراط.

في كلِّ حكايةٍ أريج،
وفي كلِّ ودٍّ طريقٌ إلى النُّور...

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com